عودة الجبرتي

رواية خيالية

بقلم

محمد عرموش

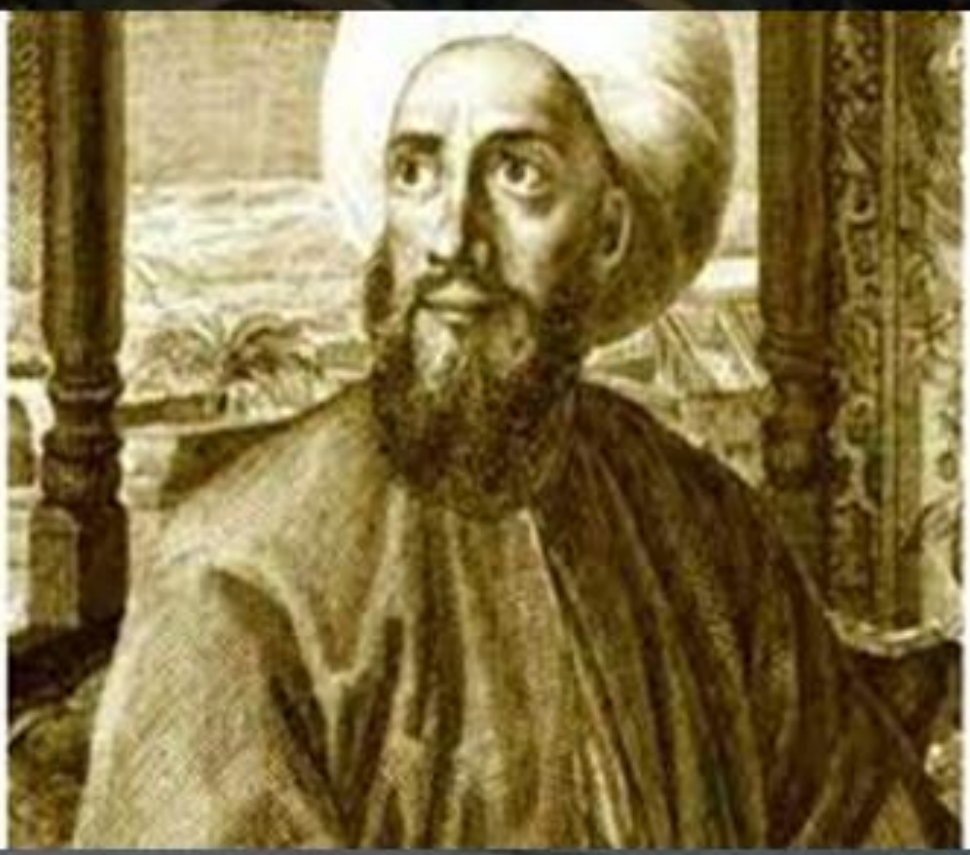

عودة الجبرتي

رواية خيالية

بقلم

محمد عرموش

بسم الله الرحمن الرحيم

رأيت في المنام

رأيت في المنام أني أتجول في القاهرة الفاطمية وأسير ببطء بين الآثار الإسلامية والتحف المعمارية ، فكل أثر يحكي موقف تاريخي قد قرأت عنه في الكتب والمراجع التاريخية فهذا يذكرني بانتصار وذلك بانكسار ، ورحت أتأمل المساجد والمدارس والمنازل والأسبلة والأضرحة والقصور والبوابات والأسوار وما إلي ذلك مما يبهر الأبصار ويثير العجب والأفكار ، فبدأت من باب الفتوح وجامع الحاكم بأمر الله ومسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار ومشيت في شارع المعز لدين الله الفاطمي وتأملت الآثار الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية وكذلك ما تم تشييده في عصر محمد علي باشا ، حيث أن هذا الشارع يُعد متحف مفتوح كبير به آثار من عدة عصور ، وكل عصر له سمته الخاص وجماله وتصميماته الرائعة التي تميزه عن باقي العصور ، حيث يمكنك التمييز بين عصر تشييد كل مبني ومبني بسهولة ، ومررت بمنطقة بيت السحيمي الأثري وقصر الأمير بشتاك ثم المدرسة الكاملية والجامع الأقمر ثم تأملت مجموعة السلطان برقوق ومجموعة قلاوون وسبيل محمد علي بالنحاسين ومنطقة بين القصرين والنحاسين ورحت أتأمل كل ما أمر به إلي أن وصلت إلي مدرسة الأشرف برسباي ثم مجموعة السلطان الغوري ثم الجامع الأفخر المعروف بجامع الفكهاني ومررت من خلال محلات سوق منطقة الغورية إلي أن مررت بناصية حارة الروم حيث يوجد سبيل آخر لمحمد علي باشا فاستمتعت بمشاهدته ثم استمريت في السير وأنا أتأمل ما حولي إلي أن اقتربت من باب زويلة وجامع المؤيد ، وعند هذا المكان شعرت بالتعب فقررت أن أدخل جامع المؤيد فأستريح قليلاً ثم أتابع بعد ذلك التجول ، ودخلت الجامع بالفعل وتوضأت في صحنه ثم صليت ركعتين تحية المسجد وجلست علي أحد الأرائك المتواجدة بالمسجد فإذا بشيخ ذو لحية بيضاء وعمامة كبيرة وتبدو عليه المهابة ويرتدي ملابس تبدو عجيبة ، وهيئته بشكل عام تشبه ما أراه في لوحات المستشرقين المرسومة قديمًا مثل علماء الحملة الفرنسية وغيرهم ممن كانوا يرسمون لوحات زيتية توضح مظاهر الحياة في مصر عندما زاروها ، كما لوكان هذا الشيخ يعيش في تلك العصور القديمة ، وإذا بالشيخ يقترب مني ويلقي السلام باللغة الفصحي السليمة فرددت عليه السلام ، وأوجست منه خيفة فطريقة حديثة تبدو غير مألوفة رغم أن وجهه ينطق بالبشر والطمأنينة والسكينة فوجدته يدانيني ويجلس بجواري ويقول :

من أي البلاد أنت يا بني ؟

من أي البلاد أنت يا بني ؟

فقلت في نفسي لقد كنت أريد أن أسأله نفس السؤال ولكنه سبقني ، فأجبته أنني من مصر فقال :

ولماذا ترتدي سروال وملابس تشبه إلي حد كبير ملابس الفرنجة بل هي أعجب منها ؟

وعندما سمعته ينطق كلمة الفرنجة أدركت علي الفور أنه لا يعيش في عصرنا الحالي فسألته برفق :

هل تعرف يا دولة المسلمين في أي الأعوام نحن الآن ؟

فقال نحن الآن يا بني نعيش في عام ثمانية وثلاثون ومائتين وألف (١٢٣٨هـ)

فأيقنت بما لا يدع مجالاً للشك أنه ليس من عصرنا ولكنني سعدت جدًا لأنني أتحدث مع شخص من الماضي وجد نفسه في عالمنا فجأه وهو لا يدري ، فقلت له :

ولكن ما أعرفه أننا حالياً نعيش في عام ١٤٤٣هـ وهو ما يعني بالنسبة لك ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف هجرياً وهو يوافق ٢٠٢١ ميلاديًا ، أما العام الذي ذكرته فيوافق تقريباً سنة ١٨٢٠م ، فأنت موجود الآن في عصر يختلف كل الاختلاف عن عصرك ، ولكن لا تقلق فسوف أساعدك وأقف إلي جانبك وأوضح لك كل الأمور ، ولن أدع أحد يزعجك وسأقوم بكل ما يلزم لأجعلك تبدو من عصرنا الحالي فقال :

لقد فهمت قصدك وما تعنيه ، ولكنني يا بني لا أفهم كيف حدث هذا لي ، ولكن علي أي حال أنا اطمئن لك وأشعر براحة كبيرة من كلامك

فقلت : لا يهم كيف حدث هذا ، ودعنا نستمتع بالحديث معًا

واستأذنته في الذهاب لإحضار بعض الملابس والاحتياجات التي تليق به وخرجت من المسجد مسرعًا لشراء وإحضار كل ما يلزمه وعدت إليه ليرتدي الملابس الجديدة ويستخدم ما أحضرته له ، ثم سألته عن اسمه بعد أن أخبرته عن اسمي فذهلت عندما عرفت أنه المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي وفرحت للغاية ، وتذكرت أنه كان يعيش بالقرب من هذه المنطقة وتحديدًا في حارة الصناديقية ثم أدركت علي الفور أن العام الذي ذكره هو العام الذي توفي بعده بعامين فقط فقد توفي رحمه الله سنة ١٨٢٢م وأنه عصر محمد علي باشا الذي تولي الحكم سنة ١٨٠٥ ، فقررت أن أتبادل معه الحديث عن التاريخ وقلت :

سيكون من الممتع أن تحدثني عن الماضي وأحدثك عن المستقبل فيفيد كل منا الآخر

ماذا تريد أن تعرف عن الماضي يا بني ؟

ماذا تريد أن تعرف عن الماضي يا بني ؟

فقلت : إنني أحاول أن أكون مثلك يا دولة المسلمين فأنا أعشق قراءة التاريخ وقد قرأت كتابك الممتع عجائب الآثار في التراجم والأخبار وعرفت وتعلمت منه الكثير فجزاك الله خيرًا لكتابتك كل هذه المعلومات المفيدة ، ولكنني كنت أتمني أن أستفسر عن بعض الأمور

لا مانع لديّ بالطبع ، ولكنني أريد منك أيضًا أن توضح لي كيف سارت بعض الأمور من بعدي وما الذي كتبه المؤرخون في عصركم

بكل سرور يا سيدي ، وفي البداية أتمني أن تحدثني عن مكانة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف في عصركم فإن له كل التقدير والاحترام في عصرنا

للسيد عمر يا بني مكانته الرفيعة لدي الجميع ، وهو لم يصدمني في نفسه كما صدمني عدة مشايخ آخرين عندما انساقوا وراء مطامع الدنيا التي عرضها عليهم محمد علي باشا

أجل يا سيدي أعرف قصة محمد علي باشا مع المشايخ وزعماء الشعب ، فلنتحدث عن هذا الموضوع لأهميته ، فأهم ما نلاحظه في هذا الموضوع هو مكانة السيد عمر مكرم ومدي قوة شخصيته فقد عظم نفوذه في السنوات الأولي من حكم محمد علي باشا ، إلي ما لم يسبق له نظير من قبل ، وكان هذا وضعًا طبيعيًا فهو الذي أجلس محمد علي علي عرش مصر ، فكان في السنوات الأولي من حكمه أحد أركان ذلك العرش ، ولقد بلغ من مكانته أن محمد علي باشا لما اعتزم أن يجرد جيشًا لمحاربة محمد بك الألفي في الصعيد (أبريل سنة ١٨٠٦) عرض عليه أن يستخلفه فينوب عنه ويكون (قائمقامًا) مدة غيبته ، مما أدهش الجميع أما ما زاد من دهشتهم أكثر فهو امتناع السيد عمر مكرم وعدم قبوله طلب محمد علي

أجل يا بني والسيد عمر قال للمقربين منه عن هذا الموضوع : إنما هي إيهامات لا أصل لها

يبدو لي يا سيدي أن الامتناع كان راجعًا إلي أنه شعر بأن العرض لم يكن إلا ضربًا من ضروب المجاملة والتكريم ، أو لأنه كان يتورّع عن مناصب السلطة ويخشي أن يتهمه حُسّاده –وكانوا كثيرين– بأنه يسعي إلي الجاه ، ولا يعطي إلا ليأخذ ، فأراد أن يجعل جهاده في سبيل الله

الحقيقة يا بني أن السيد عمر لم يكن في حاجة إلي أن يكون (قائمقامًا) ليعظم مركزه ، فقد كان له في نفوس الشعب أكبر منزلة وأعظم مكانة ، فكان الجميع يتعجبون عندما يرونه في الاجتماعات والحفلات العامة يتقدم المدعوين فيخلون له صدر المجالس طواعية واختيارًا ، فيكون بجانب محمد علي كتفًا لكتف

ولقد قرات في كتابك الممتع يا سيدي عن السيد عمر ما نصه: (ارتفع شأن السيد عمر وزاد أمره بمباشرة الوقائع وولاية محمد علي باشا ، وصار بيده الحل والعقد والأمر والنهي والمرجع في الأمور الكلية والجزئية) ، وقلت في موضع آخر (ولما وقع ما وقع في ولاية محمد علي باشا وانفرد السيد عمر أفندي في الرياسة صارت بيده مقاليد الأمور)

ولا نزاع أن الزعامة الشعبية قد اكتسبت نفوذًا معنويًا كبيرًا لمكانة السيد عمر مكرم وشخصيته ومهابته ، فهو بحكم رآسته لهذه الزعامة كان يُسبغ عليها من شخصيته الكبيرة ما يجعلها نافذة الكلمة محترمة المقام

الزعامة الشعبية تمثل صداع في رأس محمد علي باشا

لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولي من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم

ولئن كان محمد علي مدينًا للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التي اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها وتنزع به إلي الاستبداد بالأمر ، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه طمحت نفسه إلي الاستبداد بالأمر وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم وسعيهم في دفع المظالم عن الناس ، كما كان المقربون منه أيضًا يستشيطون غضبًا من السيد عمر مكرم وباقي العلماء ويشعرون أنهم يقررون كل شئ ويديرون جميع أمور الدولة

والذي حدث يا سيدي أن الباشا قد استنفذ حاجته من هؤلاء الزعماء وقرر أن يتخلص منهم ولكن بأسلوب ماكر وخبيث ، فطلب من رجاله أن تُبطِل مسموح المشايخ وتعفي الأراضي التي يملكونها من الضرائب ، وإنما هي خطة ستؤتي ثمارها للتخلص منهم ، فقد قرر أن يشغلهم بالدنيا ويورطهم معه فيما يتم جبايته من أموال وبذلك يفقدون تعاطف الرعية

ولأنهم ليسوا جميعًا من ملاك الأراضي ، فعندما يعرفون هذه الإمتيازات الجديدة سيسعون لامتلاك المزيد منها

وكان الباشا علي يقين بالطبع أن بعضهم لن يتورط في كل هذا وخاصة السيد عمر مكرم

، ولكن عدم تورطه سيجعله نظيفًا بين الملوثين فيزداد كرههم له وحقدهم عليه فيبحثون له عن ذريعة للتخلص منه وإبعاده

وعندها سيلجأون إلي محمد علي ، وسوف ينفيه خارج القاهرة بعيدًا عن الأحداث وهذا أقصي ما يمكن فعله مع رجل مثله محبوب من الجماهير

وبالفعل يا بني لقد أسرع رجال محمد علي في إعلان قراراته الجديدة بشأن العلماء وانتشرت بين الناس

ومع مرور الوقت تحقق الكثير مما توقعه الباشا مع عدد لا يستهان به من العلماء

وقد غضبت يا دولة المسلمين عند حدوث ذلك وكتبت عن هذا الموضوع ما يلي :

(ولما انقضي هذا الأمر واستقر الباشا وأطمأن خاطره وخلص له الإقليم المصري ، فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها ، واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء ، واتخذوا الخدم والأعوان ، وانقلب الوضع فيهم بضده وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام ، وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد علي الرياسة)

أما السيد عمر مكرم فلم يخضع لمغريات محمد علي باشا ، فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتي آخر نسمة من حياته وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلي أسباب المنافع والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور

وكان طبيعيًا أن محمد علي بعد انفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم علي احترامها كان عليه أن يزيح السيد عمر مكرم ثم ينفيه إلي دمياط بعيدًا عن العاصمة مستغلًا الاختلافات التي حدثت بين العلماء عندما فرض محمد علي ضرائب علي الأوقاف واعتراض السيد عمر علي ذلك فاستبدله الباشا بالشيخ محمد السادات ليصبح نقيبًا للأشراف بدلاً منه

وهكذا تم إبعاد السيد عمر

وإستمر الحديث على هذا النحو بيني وبين الشيخ الجبرتي وانا في قمة سعادتي ثم فجأة خطر في ذهني سؤال فقلت ، ولماذا يا سيدي لم يتولى السيد عمر مكرم حكم مصر بنفسه وقام بتسليم السلطة طواعية لمحمد علي باشا ، فأطرق الشيخ قليلا ثم قال :

ولماذا تسأل هذا السؤال يا بني؟

فقلت لست وحدي في عصرنا هذا الذي يسأل هذا السؤال وحاول التفكير في الأجابة لأن السيد عمر مكرم مصري ونحن حاليًا نريد أن يكون حاكم مصر مصري مثلنا ، فقال الشيخ :

هل تقصد بكلامك يا بني أنه قاهري مثلًا ؟

وعندما سمعت الشيخ يقول كلمة (قاهري) بدلًا من (مصري) شردت قليلًا وتذكرت علي الفور ما كتبه د جمال حمدان عن ظاهرة السيولة السياسية في العالم الإسلامي كما أسماها حيث كتب ما ملخصه :

(– فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالًا في العصور الوسطي لإمبراطوريات أو خلافات واسعة ، فكثيرًا ما سنجابه بها تتحرك في الميدان الدولي كقوة لها وزنها الخاص ، ولا ينقصها الحكم الذاتي ، أو قد تفقد استقلالها لأسرة حاكمة أجنبية ، ولكنها من داخل تلك الأسرة تتصرف كدولة مستقلة دولة داخل الدولة كما قد نقول وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الاستراتيجية الكامنة ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسألة السيادة أو التبعية في تاريخ مصر الإسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ في الحكم . والواقع أن العصر الإسلامي الوسيط عمومًا يمتاز سياسيًا بخاصية فريدة ، بدونها قد نخطئ فهم الخريطة السياسية كلها ، تلك هي " السيولة السياسية " غير العادية فلقد كان العصر عصر الدين ، عصر القومية الدينية ، وكان الإسلام هو العقيدة والعصبية ، والجنس والجنسية ، والوطن والوطنية جميعًا ، وكان روح العصر أن ينتقل المسلمون بحرية وبلا قيود داخل دار الإسلام أو الكومونولث الإسلامي ،

كذلك غلبت فكرة الوطن المحلي علي الوطن الإقليمي فكان المسلم يُنسب إلي بلدته أكثر مما ينسب إلي بلده ، فيُقال البغدادي ، أو البصري أو السامرائي ولا يُقال العراقي ، ويقال الدمشقي أو الحلبي أو الطرابلسي ، أو المقدسي ولا يقال السوري ، والقاهري أو السكندري لا المصري ، والقابسي ، الوهراني ، والفاسي ، لا المغربي وهكذا

أما من الناحية السياسية فلم تكن الوحدات الجغرافية الإقليمية بنواتها الطبيعية المحددة ، ولا كانت فكرة الوطن والوطنية بمعني القومية الحديث والولاء الضيق ، ظاهرة متبلورة أو جامدة ، بل كانت غير واضحة متميعة داخل فكرة الوطن الإسلامي الكبير ومتداخلة معها بصورة شبه هلامية ، بالتالي كان العالم الإسلامي وعاءًا ضخمًا أو هيكلًا أخيرًا تقوم فيه الدول المختلفة وتتعدد ، وتتنافس وتتصارع ، ولكنهًا أساسًا تقوم علي أصل أو أساس شخصي أو أسري بحت – أي حكومة عائلة بعينها– أو حاكم بعينه في الاعتبار الأول ، ولقد تستقر علي نواة إقليم جغرافي كامل ، أو محدد بعينه أو أكثر ولكنها ممكن دائمًا أن تنتقل أو تتمدد إلي أيما أبعاد أقليمية جغرافية يستطيع أن تصل إليها نفس تلك الأسرة الحاكمة بلا تحديد سوي قوتها السياسية وطاقتها التوسعية ، وبلا أي عائق أو حرج قومي ما بقيت في إطار الوطن الإسلامي الكبير نفسه

بعبارة أخري للدول السياسية الإسلامية أبعاد أو مستويات ثلاثة تتداخل وتترجرج بسهولة وبلا تحديد واضح فهي علي المستوي القاعدي حكومات شخصية ، ودول شخصية ، وإمبراطوريات شخصية ابتداء وانتهاء ، وهي علي المستوي الجغرافي لا ترتبط بنواة إقليمية إلا عشوائيًا وكما اتفق ، وهي علي المستوي الأعلي والنهائي لا ترتبط إلا بحدود العالم الإسلامي الكبير نفسه ، أخيرًا إنها باختصار شديد دول شخصية لا جغرافية

من هنا كان الحكام يتحركون من قطر إلي قطر أو يفتحون أو يضمون قطرًا من قطر دون حساسيات إقليمية أو قومية حادة ودون أي مدلول أو محمول استعماري . الاستثناء الوحيد – وبعنف وضراوة عند ذلك – كان في حالة الكفار من وثنيين أو غير مسلمين كالتتار والصليبيين ويبدو أن الظاهرة نفسها وبرمتها كانت تسود داخل أوروبا المسيحية المعاصرة حيث كان الجرمان يحكمون في إيطاليا أو إنجلترا ، أو الفرنسيون في ألمانيا ، أو الإسبان في هولندا ... إلخ

ليس هذا فحسب ، الأكثر منه ، وما قد يبدو لنا اليوم الأغرب ، أن هذه الدول ، تمامًا مثلما سلم البطالسة أنفسهم من قبل للرومان ، كثيرًا ما كانت تسلم نفسها بنفسها لبعضها البعض ، ربما بكثير

من الصراع السياسي والصدام العسكري ، ولكن بغير حساسيات قومية حادة تستثار أو تتراكم ، وبلا نعرات إقليمية تُثلم أو تُمتهن ، وإنما الأقوي والأقدر علي المحافظة علي الإسلام والعصبية الإسلامية في وجه الخطر الأجنبي ، أي الكفار "كالتتار والصليبيين" هو ببساطة الذي يُدال إليه وربما يُستدعي استدعاء من جانب المُدال منه لكي يقوم بالمهمة المقدسة التي تعلو علي الطرفين جميعًا)[1]

ثم أفقت من شرودي وقلت للشيخ على أي حال أريد أن أكتب حالياً تاريخ مصر كما فعلت أنت من قبل ولكنني في حيرة من أمري فقال الشيخ :

وما الذي يسبب حيرتك يا بني ؟

فقلت رغم وفرة مصادر الحصول على المعلومات إلّا أن كل مصدر منهم مشبع بالأغراض والنوايا السيئة ، فلا أدري على أي المصادر أعتمد فقال الشيخ :

يكفيك يا بني أن تقف في صف الحق

فقلت وكيف لي أن أعرف الحق من الباطل وقد إلتبس كلٌ منهما بالآخر فقال الشيخ :

إن من أيسر سبل معرفة الحق من الباطل هو أن ترى إلى أين تتجه سهام الأعداء فهي دائما تتجه ضد الحق وإعلم يا بني أن المعارك دائماً تكون إما بين حق وباطل أو بين باطل وباطل ومن المستحيل أن تكون هناك معركة بين حق وحق

انقسام المجتمع

قلت للشيخ يوجد حاليًا في مجتمعنا انقسام واختلاف في عدة أمور

المهم يا بني أن يكون الجميع متفق علي الثوابت الراسخة أما باقي الاختلافات فمقدور عليها

أخشي يا سيدي من وجود اختلافات علي الثوابت نفسها

كيف يا بني فقد بدأت أشعر بالقلق من كلامك ؟

وهنا توقفت عن الكلام لأفكر فيما يمكن أن يُقال للشيخ وما لا يليق أن أقوله كي لا أصدمه بأحوالنا ، ولكنني وجدت نفسي أقول دون تفكير وكأنني أتحدث بشكل لا إرادي

إن المسلمين هذه الأيام يا سيدي يعانون من الظلم والجور في أماكن عدة من العالم ، حيث يكثر فيهم القتلي واللاجئين الذين يعيشون في ظروف صعبة داخل خيام تفتقد إلي الدفء والأمان ، بعد أن تركوا بيوتهم المدمرة ، كما أن نساء المسلمين يعانون من فرض عدم الحجاب عليهن طبقًا للقوانين الوضعية ، في كثير من البلاد ، أما بلاد المسلمين نفسها فقد تمزقت وخضعت إلي نخب حاكمة تبدو موالية

---

[1] نقلًا عن كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان - الفصل الثاني – شخصية مصر السياسية - مكتبة مدبولي

لأعداء الإسلام ، وتكره ما أنزل الله وانتشرت الأفكار المعادية للشريعة ومنهج الله سبحانه وتعالي ، فمنهم من يضع قوانين ومناهج بعيدة عن منهج الله ومنهم من يفصل الدين عن الدولة ، والجميع يبحث عن هوية وقومية أخري غير الهوية الإسلامية إلا من رحم ربي

ولا توجد حاليًا قوة عظمي إسلامية مرهوبة الجانب ، بل سيطر علي العالم مجموعة من الدول بعد انتصارهم في حرب عالمية عظمي ووضعوا القوانين الدولية طبقًا لمصالحهم ومصالح من يدور في فلكهم

كان الشيخ يستمع في ذهول وتبدو عليه علامات الأسي والحزن ثم قال :

لله الأمر من قبل ومن بعد وإنا لله وإنا إليه راجعون ، أنا لا أكاد أصدق أن حال المسلمين قد وصل إلي هذا المستوي من الضعف والهوان ، ولكن يا بني أين الدولة العلية والباب العالي والسلطان من كل هذا؟

لم يعد للسلطنة العثمانية التي تعرفها وجود حاليًا يا دولة المسلمين فقد هزمتها الدول الكبري ومزقتها وقسموا ممتلكاتها فيما بينهم

فأين ذهب محمد علي باشا يا بني؟

لقد ساعدوه في البداية ونهضوا بدولته علي أسس علمية حديثة لتصبح أقوي من الدولة العثمانية واستخدموه في تدمير وإضعاف الدولة ثم تآمروا عليه وهزموه ودمروا أسطوله ، فلم يجد المسلمون ناصر لهم من الدولة العثمانية ولا من دولة محمد علي باشا التي سيطر عليها الغرب سيطرة كاملة وقاموا بتغريبها وغسلوا عقول أبناء وأحفاد محمد علي باشا وجعلوهم يؤمنون بأن الغرب هم سادتهم وقدوتهم ، ففتح أبناء محمد علي أبواب مصر أمام كل منحل غربي ليعيث فيها فسادًا – فكان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أحط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعاً في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة – –)٢

فأين ذهبت الخلافة إذن ؟

---

٢ كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٨ مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٥

وهنا أطرقت ودَمعت عيناي وقررت أن أقرأ علي الشيخ جانب من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي التي أنشدها في رثاء الخلافة فقلت:

عادت أَغاني العرسِ رَجْعَ نُواح ... ونُعيتِ بين معالم الأَفراحِ
كُفِّنتِ في ليلِ الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تبلُّج الإصباح
شُيِّعتِ من هَلَعٍ بعَبْرةِ ضاحكٍ ... في كلّ ناحيةٍ، وسكرةِ صاح
ضجَّتْ عليكِ مآذنٌ، ومنابر ... وبكت عليك ممالكٌ، ونواح
الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ
والشامُ تسأَلُ، والعراق، وفارسٌ ... أَمَحَا من الأَرض الخلافةَ ماح؟
وأَتت لك الجُمَعُ الجلائلُ مأْتماً ... فقعدن فيه مَقاعدَ الأَنواح
يا لَلرّجال لحُرة مَوءُودة ... قُتلت بغير جريرة وجُناح
إِنَّ الَّذين أَسَتْ جراحَكِ حربُهم ... قتلتْكِ سلهمُ بغير جِراح
هتكوا بأَيديهم مُلاءَةَ فخرِهم ... مَوْشِيَّةً بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأَعناق خيرَ قِلادة ... ونَضَوْا عن الأَعطاف خير وِشاح
حَسَبٌ أَتى طولُ الليالي دونَه ... قد طاح بين عشيةٍ وصباح
وعَلاقَةٌ فُصِمَت عُرَى أَسبابها ... كانت أَبرَّ علائقِ الأَرواح
جَمَعَت على البرِّ الحُضورَ، وربما ... جمَعتْ عليه سرائرَ النُّزَّاح
نظمت صفوفَ المسلمين وخَطْوَهم ... في كلِّ غُدوةِ جُمعة ورواح
بكت الصلاةُ، وتلك فتنةُ عابثٍ ... بالشرع، عِرْبيدِ القضاءِ، وَقاح
أَفتى خُزَعْبِلَةً، وقال ضلالةً ... وأَتى بكفر في البلاد بواح
إِنَّ الذين جرى عليهم فقهُهُ ... خُلقوا لِفقه كتيبة وسلاح
إن حدّثوا نطقوا بخُرْسِ كتائبٍ ... أَو خوطبوا سمِعوا بصُمِّ رِماح
استغفرُ الأَخلاقَ، لستُ بجاحدٍ ... من كنتُ أَدفعُ دونَه وألاحي
ما لي أُطوّقُهُ الملامَ وطالما ... قلَّدتُه المأْثورَ من أَمداحي
هو ركنُ مملكة، وحائطُ دُولةٍ ... وقريعُ شهباءٍ، وكبشُ نِطاح
أَأَقولُ مَن أَحيا الجماعةَ مُلحِدٌ ... وأَقول مَن رد الحقوقَ إباحي
الحقُّ أَولى من وليِّك حرمةً ... وأَحقُّ منك بنصرةٍ وكِفاح
فامدح على الحقِّ الرجالَ ولُمْهُم ... أَو خَلِّ عنك مَواقفَ النصاح
ومِن الرجالِ إِذا انبريتَ لهدمهم ... هرمٌ غليظُ مناكِبِ الصُّفّاحِ
فإِذا قذفتَ الحق في أَجلاده ... ترك الصراعَ مُضعْضَعَ الألواح

أَدُّوا إلى الغازي النصيحةَ يَنتصحْ ... إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماح
إن الغرورَ سقى الرئيسَ بِراحِه ... كيف احتيالُك في صريع الراح
نقل الشرائعَ، والعقائدَ، والقرى ... والناسَ نقلَ كتائبٍ في الساح
تركتْه كالشبح المؤلَّهِ أُمَّةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عباد الأشباح
هُم أَطلقوا يده كقيصرَ فيهم ... حتى تناول كلَّ غيرِ مباح
غرَّته طاعاتُ الجُموعِ، ودولةٌ ... وجد السوادُ لها هَوَى المُرتاح
وإذا أَخذتَ المجدَ من أُمِّيةٍ ... لم تُعطَ غيرَ سَرابِه اللّماح
منْ قائِلٌ للمسلمين مقالةً ... لم يوحها غيرَ النصيحة واح؟
عهدُ الخلافةِ فِيَّ أَوّلُ ذائدٍ ... عن حوضها ببراعةٍ نضَّاح
حبٌّ لذاتِ اللَّهِ كان، ولم يزل ... وهوىً لذاتِ الحقِّ والإصلاح
إني أَنا المِصباحُ، لست بضائع ... حتى أَكونَ فراشةَ المصباح
غزواتُ أَدهم كُلِّلَت بذوابِلٍ ... وفتوحُ أَنورَ فُصِّلت بِصفاح
ولَّتْ سيوفُهما، وبان قناهُما ... وشبا يَراعي غيرُ ذاتِ بَراح
لا تَبذلوا بُرَدَ النبي لِعاجزٍ ... عُزُلٍ، يدافَعُ دونَه بالراح
بالأَمس أَوهى المسلمين جراحةً ... واليوم مدّ لهم يَدَ الجرّاح
فلتَسمَعُنّ بكل أَرضٍ داعياً ... يدعو إلى الكذّابِ أَو لسَجاح
ولتشهدُنّ بكل أَرض فِتنةً ... فيها يباعُ الدِّين بيعَ سَماح
يُفتَى على ذهبِ المُعزِّ وسيفِه ... وهوى النفوس، وحِقْدِها الملحاح

الدنيا بلا خليفة

فقال الشيخ

لقد ذكرني كلامك يا بني بالخليفة العباسي المستعصم بالله (قتيل التتار) : الذي كتب عنه الإمام السيوطي قائلًا : (– كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة – – ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي[٣] فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار[٤] وناصحهم وأطمعهم في المجئ إلي العراق وأخذ بغداد – – – وصار إذا جاء خبر منهم كتمه علي الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل –)[٥]

[٣] كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية
[٤] باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سراً
[٥] كتاب تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٣

فقلت : ومن هذا يتضح أن هذا الوزير الشيعي قد خان الدولة والخلافة العباسية ، المهم يا سيدي إن الوزير وضع صورة غير حقيقية عن الموقف أمام الخليفة بينما وضع صورة حقيقية أمام التتار حتي أن الخليفة اعتقد أنه يمكنه إنقاذ الأمة وحقن دماء المسلمين وذلك بتوقيع معاهدة مع التتار كما يفعل بعض الملوك عندما يواجهون خطراً أكبر من إمكانياتهم فيلجئون إلي الدبلوماسية ، ولم يكن الخليفة العباسي فقط الذي تم خداعه بهذا الموضوع بل قام الوزير ابن العلقمي بخداع العلماء والأمراء أيضاً (- ثم دخل الوزير فاستدعي الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم وصار كذلك : تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم حتي قتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب والكبار ثم مد الجسر وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً فبلغ القتلى أكثر من ألف ألف نسمة ، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقُتِل الخليفة رفساً ، قال الذهبي : ما أظنه دُفِن ، وقُتِل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأسر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها -)[٦]

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم - - - ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم :

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي - - - حزناً علي ما تم للمستعصم

دست الوزارة[٧] كان قبل زمانه - - - لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وطبعاً بكل صدق وبكل ألم اعترف لك عن عجزي عن التعبير بأسلوبي المتواضع عن ما فعله التتار بالإسلام والمسلمين بل وبجميع الأديان والجنسيات التي واجهتهم

فبعد أن تم قتل الخليفة تحت حوافر الخيول وأصبحت الأمة بلا خليفة وبلا سلطان وبلا قائد في مصر سوي هذا الغلام الصغير السلطان نور الدين علي ابن المعز أيبك الذي من المفترض أن يقود الأمة ويسيطر علي جحافل المماليك وعناد الأمراء ويدفعهم إلي قتال العدو المشترك اللدود " التتار" ولكن للأسف لم يكن هذا الغلام من المماليك أساساً ولا رجلاً عسكرياً أو سياسياً ولا حتي قائداً من أي نوع فيما يبدو ، المهم أن أتابك العسكر الأمير قطز قرر عزل السلطان الصغير وتولي بنفسه السلطنة وكان هدفه الأساسي هو القضاء علي التتار وقال لكبار الأمراء من المماليك (- إني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم -)[٨] وبفضل الله تم النصر وفر التتار كما هو معروف

---

[٦] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٨

[٧] دست الوزارة = منصب الوزارة

[٨] كتاب تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢

الحاجة إلي الحاكم

واستمر الحديث بيني وبين الشيخ علي هذا النحو حيث تطرقنا إلي مقارنة الأوضاع بين ضياع الخلافة العباسية في بغداد علي يد التتار قديمًا وبين إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا علي يد العلمانيين الأتراك حديثًا ، ثم سألت الشيخ عن سبب حاجة الناس إلي الخليفة أو الحاكم بشكل عام فقال :

– أعلم يا بني أن الله تعالى لما خلق الأرض ودحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها، وبث فيها من كل دابة وقدر أقواتها أحوج بعض الناس إلى بعض في ترتيب معايشهم ومآكلهم وتحصيل ملابسهم ومساكنهم، لأنهم ليسوا كسائر الحيوانات التي تحصل ما تحتاج إليه بغير صنعة .فإن الله تعالى خلق الإنسان ضعيفا لا يستقل وحده بأمر معاشه لاحتياجه إلى غذاء ومسكن ولباس وسلاح، فجعلهم الله تعالى يتعاضدون ويتعاونون في تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذاك ويخبز ذاك لهذا وعلى هذا القياس تتم سائر أمورهم ومصالحهم، وركز في نفوسهم الظلم والعدل .ثم مست الحاجة بينهم ميزانا للعدالة وقانونا لسياسة توزن به حركاتهم وسكناتهم وترجع إليه طاعاتهم ومعاملاتهم، فأنزل الله كتابه بالحق وميزانه بالعدل كما قال تعالى :الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان.

قلت :

- وما المقصود بالكتاب والميزان
- قال علماء التفسير المراد بالكتاب والميزان العلم والعدل وكانت مباشرة هذا الأمر من الله بنفسه من غير واسطة وسبب على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة، فاستخلف فيها من الآدميين خلائف ووضع في قلوبهم العلم والعدل ليحكموا بهما بين الناس حتى يصدر تدبيرهم عن دين مشروع وتجتمع كلمتهم على رأي متبوع، ولو تنازعوا في وضع الشريعة لفسد نظامهم واختل معاشهم
- فما المقصود بالخلافة هنا ؟
- معنى الخلافة هو أن ينوب أحد مناب آخر في التصرف واقفا على حدود أوامره ونواهيه
- والعدالة ؟
- أما معنى العدالة فهي خُلُق في النفس أو صفة في الذات تقتضي المساواة لأنها أكمل الفضائل لشمول أثرها وعموم منفعتها كل شيء، وإنما يُسمى الإنسان عادلًا لما وهبه الله قسطا من عدله وجعله سببا وواسطة لإيصال فيض فضله واستخلفه في أرضه بهذه الصفة حتى يحكم بين الناس بالحق والعدل، كما قال تعالى : يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ سورة ص (٢٦) وخلائف الله هم القائمون بالقسط والعدالة في طريق الاستقامة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، والعدالة تابعة للعلم بأوساط الأمور

- وما المقصود بأوساط الأمور ؟
- أوساط الأمور المعبر عنها في الشريعة بالصراط المستقيم .وقوله تعالى :إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ سورة هود من الآية(٥٦) ، إشارة إلى أن العدالة الحقيقية ليست إلّا لله تعالى فهو العادل الحقيقي الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ووضع كل شيء على مقتضى علمه الكامل وعدله الشامل .وقوله صلى الله عليه وسلم :بالعدل قامت السموات والأرض، إشارة إلى عدل الله تعالى الذي جعل لكل شيء قدراً لو فرض فارض زائداً عليه أو ناقصاً عنه لم ينتظم الوجود على هذا النظام بهذا التمام والكمال.

أصناف العدل

- فما أصناف العدل ؟
- أصناف العدل من الخلائق خمسة ، ورفع الله بعضهم فوق بعض درجات كما قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)سورة الأنعام ١٦٥
- فما الصنف الأول ؟
- الصنف الأول الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام فهم أدلاء الأمة وعمد الدين ومعادن حكم الكتاب وأمناء الله في خلقه، هم السُرُج المنيرة على سبيل الهدى وحملة الأمانة عن الله إلى خلقه، بالهداية بعثهم الله رسلا إلى قومهم وأنزل معهم الكتاب والميزان ولا يتعدون حدود ما أنزل الله إليهم من الأوامر والزواجر إرشاداً وهداية لهم حتى يقوم الناس بالقسط والحق، ويخرجونهم من ظلمات الكفر والطغيان ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقيمون الدين المشروع الذي وصاهم الله بإقامته في قوله تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا)سورة الشوري من الآية (١٣) ، فكل أمر من أمور الخلائق دنيا وآخرة عاجلاً وآجلاً قولاً وفعلاً حركة وسكوناً جار على منهج العدالة ما دام موزوناً بذا الميزان، ومنحرف عنها بقدر انحرافه عنه، ولا تصح الإقامة بالعدالة ألا بالعلم وهو أتباع أحكام الكتاب والسنة.
- فقلت : وما الصنف الثاني ؟

قال الشيخ :

- الصنف الثاني العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فهم فهموا مقامات القدوة من الأنبياء وإن لم يُعطوا درجاتهم واقتدوا بهداهم واقتفوا آثارهم إذ هم أحباب الله وصفوته من خلقه ومشرق نور حكمته، فصدقوا بما أتوا به وساروا على سبيلهم وأيدوا دعواتهم ونشروا حكمتهم كشفاً وفهماً وذوقاً

وتحقيقاً، أيماناً وعلماً بكمال المتابعة لهم ظاهراً وباطناً .فلا يزالون مواظبين على تمهيد قواعد العدل وإظهار الحق برفع منار الشرع وإقامة أعلام الهدى والإسلام وأحكام مباني التقوى برعاية الأحوط في الفتوى تزهداً للرخص لأنهم أمناء الله في العالم وخلاصة بني آدم مخلصون في مقام العبودية مجتهدون في أتباع أحكام الشريعة، عن باب الحبيب لا يبرحون ومن خشية ربهم مشفقون، مقبلون على الله تعالى بطهارة الأسرار وطائرون إليه بأجنحة العلم والأنوار، هم أبطال ميادين العظمة وبلابل بساتين العلم والمكالمة .أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، وتلذذوا بنعيم المشاهدة، ولهم عند ربهم ما يشتهون.

فقلت : وما العمل إذا اختل حال بعضهم ؟

قال : وما ظهر في هذا الزمان من الاختلال في حال البعض من حب الجاه والمال والرياسة والمنصب والحسد والحقد لا يقدح في حال الجميع لأنه لا يخلو الزمان من محقيهم وإن كثر المبطلون، ولكنهم أخفياء مستورون تحت قباب الخمول لا تكشف عن حالهم يد الغيرة الإلهية والحكمة الأزلية .وهم آحاد الأكوان وأفراد الزمان وخلفاء الرحمن، وهم مصابيح الغيوب ، مفاتيح أقفال القلوب، وهم خلاصة خاصة الله من خلقه، وما برحوا أبداً في مقعد صدقه،وبهداهم يهتدي كل حيران ويرتوي كل ظمآن، وذلك أن مطلع شمس مشارق أنوارهم مقتبس من مشكاة النبوة المصطفوية، ومعدن شجرة أسرارهم مؤيد بالكتاب والسنة ، لا أحصي ثناء عليهم، أفض اللهم علينا مما لديهم.

الملوك وولاة الأمر

– فما الصنف الثالث ؟

– الصنف الثالث يا بني هم الملوك وولاة الأمور

– لماذا يا دولة المسلمين ؟

– لأنهم يراعون العدل والإنصاف بين الناس والرعايا توصلا إلى نظام المملكة وتوصلاً إلى قوام السلطنة لسلامة الناس في أموالهم وأبدانهم وعمارة بلدانهم، ولولا قهرهم وسطوتم لتسلط القوي على الضعيف والدنيء على الشريف .فرأس المملكة وأركانها وثبات أحوال الأمة وبنيانها العدل والإنصاف، سواء كانت الدولة إسلامية أو غير إسلامية فهما أُس كل مملكة وبنيان كل سعادة ومكرمة .فإن الله تعالى أمر بالعدل، ولم يكتف به حتى أضاف إليه الإحسان، فقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)سورة النحل من الآية ٩٠ ، لأن بالعدل ثبات الأشياء ودوامها وبالجور والظلم خرابها وزوالها، فإن الطباع البشرية مجبولة على حب الانتصاف من الخصوم وعدم الإنصاف لهم والظلم والجور كامن في النفوس لا يظهر إلا بالقدرة كما قيل :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

فلولا قانون السياسة وميزان العدالة لم يقدر مصل على صلاته ولا عالم على نشر علمه ولا تاجر على سفره

قلت :

– فما حد الملك العادل؟

فقال الشيخ :

– هو ما قال العلماء بالله : من عدل بين العباد وتحذر عن الجور والفساد، حسبما ذكره رضى الصوفي في كتابه المسمى بقلادة الأرواح وسعادة الأفراح، عن أبي هريرة قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها .وفي حديث آخر : والذي نفس محمد بيده أنه ليرفع للملك العادل إلى السماء مثل عمل الرعية وكل صلاة يصليها تعدل سبعين ألف صلاة، وكأن الملك العادل قد عبد الله بعبادة كل عابد وقام له بشكر كل شاكر، فمن لم يعرف قدر هذه النعمة الكبرى والسعادة العظمى واشتغل بظلمه وهواه يخاف عليه بان يجعله الله من جملة أعدائه، وتعرض إلى أشد العذاب، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :أن أبغض الناس إلى الله تعالى وأشدهم عذابا يوم القيامة إمام جائر .فمن عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق وأطاعه الخلق وصفت له النعمى وأقبلت عليه الدنيا، فتهنّأ بالعيش واستغنى عن الجيش، ومَلك القلوب وأمِن الحروب، وصارت طاعته فرضا وظلت رعيته جنداً لأن الله تعالى ما خلق شيئا أحلى مذاقا من العدل ولا أروح إلى القلوب من الإنصاف ولا أمر من الجور ولا أشنع من الظلم . فالواجب على الملك وعلى ولاة الأمور أن لا يقطع في باب العدل إلا بالكتاب والسنة، لأنه يتصرف في ملك الله وعباد الله بشريعة نبيه ورسوله نيابة عن تلك الحضرة ومستخلفا عن ذلك الجناب المقدس، ولا يأمن من سطوات ربه وقهره فيما يخالف أمره فينبغي أن يحترز عن الجور والمخالفة والظلم والجهل، فإنه أحوج الناس إلى معرفة العلم وإتباع الكتاب والسنة وحفظ قانون الشرع والعدالة، فإنه منتصب لمصالح العباد وإصلاح البلاد وملتزم بفصل خصوماتهم وقطع النزاع بينهم، وهو حامي الشريعة بالإسلام، فلا بد من معرفة أحكامها والعلم بحلالها وحرامها ليتوصل بذلك إلى إبراء ذمته وضبط مملكته وحفظ رعيته، فيجتمع له مصلحة دينه ودنياه وتمتلئ القلوب بمحبته والدعاء له، فيكون ذلك أقوم لعمود ملكه وأدوم لبقائه وأبلغ الأشياء في حفظ المملكة العدل والإنصاف على الرعية.

– أيهما أفضل للملك العدل أم الشجاعة؟

– قيل لحكيم :أيهما أفضل العدل أم الشجاعة؟ فقال :من عدل استغنى عن الشجاعة لأن العدل أقوى جيش وأهنأ عيش. وقال الفضيل بن عياض :النظر إلى وجه الإمام العادل عبادة، وأن المقسطين

عند الله على منابر من نور يوم القيامة عن يمين عرش الرحمن .قال :سفيان الثوري :صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة :الملوك والعلماء .والملك العادل هو الذي يقضي بكتاب الله عز وجل ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله. روى ابن يسار عن أبيه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :أيما وال ولي من أمر أمتي شيئا فلم ينصح لهم ويجتهد كنصيحته وجهده لنفسه كبه الله على وجهه يوم القيامة في النار.

قلت : فما الصنف الرابع ؟

أوساط الناس

قال الشيخ :

– الصنف الرابع هم أوساط الناس ، يراعون العدل في معاملاتهم –، فهم يكافؤون الحسنة بالحسنة والسيئة بمثلها. أما الخامس فهم القائمون بسياسة نفوسهم وتعديل قواهم وضبط جوارحهم وانخراطهم في سلك العدول، لأن كل فرد من أفراد الإنسان مسؤول عن رعايا رعيته التي هي جوارحه وقواه كما ورد :كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، كما قيل :صاحب الدار مسؤول عن أهل بيته وحاشيته. ولا تؤثر عدالة الشخص في غيره ما لم تؤثر أولاً في نفسه إذ التأثير في البعيد قبل القريب بعيد .وقوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ)سورة البقرة من الآية ٤٤ ، دليل على ذلك، والإنسان متصف بالخلافة لقوله تعالى :وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ سورة الأعراف من الآية ١٢٩. ولا تصح خلافة الله إلا بطهارة النفس كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم، فما أقبح بالمرء أن يكون حسن جسمه باعتبار قبيح نفسه، كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه :أما البيت فحسن وأما ساكنه فقبيح .وطهارة النفس شرط في صحة الخلافة وكمال العبادة، ولا يصح نجس النفس لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسه ونجسه .فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة، فنجاسة البدن يمكن إدراكها بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة، كما أشار له بقوله تعالى .:إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ سورة التوبة من الآية ٢٨ فإن الخلافة هي الطاعة والاقتدار على قدر طاقة الإنسان في اكتساب الكمالات النفسية والاجتهاد بالإخلاص في العبودية والتخلق بأخلاق الربوبية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر الفعل.

فكل إناء بالذي فيه ينضح .ولهذا قيل :من طابت نفسه طاب عمله ومن خبثت نفسه خبث عمله .

وقيل في قوله عليه الصلاة والسلام :لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب، أنه أشار بالبيت إلى القلب وبالكلب إلى النفس الأمارة بالسوء أو إلى الغضب والحرص والحسد وغيرها من الصفات الذميمة الراسخة في النفس، ونبه بان نور الله لا يدخل القلب إذا كان فيه ذلك الكلب. وإلى الطهارتين أشار

بقوله تعالى :وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٤-٥ سورة المدثر وأما الذي تطهر به النفس حتى تصلح للخلافة وتستحق به ثوابه فهو العلم والعبادة الموظفة اللذان هما سبب الحياة.

وأعلم أن الإنسان من حيث الصورة التخطيطية كصورة في جدار وإنما فضيلته بالنطق والعلم .ولهذا قيل :ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة، فبقوة العلم والنطق والفهم يضارع المَلَك، وبقوة الأكل والشرب والشهوة والنكاح والغضب يشبه الحيوان .فمن صرف همته كلها إلى تربية القوة الفكرية بالعلم والعمل فقد لحق بأفق المَلَك فيسمى ملكا وربانيًا كما قال تعالى: (إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)سورة يوسف من الآية(٣١) ومن صرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوانية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فحقيق أن يلحق بالبهائم أما غمراً كثور أو شرهاً كخنزير أو عقوراً ككلب أو حقوداً كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا حيلة ومكر كثعلب أو يجمع ذلك كله فيصير كشيطان مريد، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : (وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ)سورة المائدة من الآية٦٠ . وقد يكون كثير من الناس مَن صورته صورة إنسان وليس هو في الحقيقة إلا كبعض الحيوان .قال الله تعالى :(إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) سورة الفرقان من الآية ٤٤ مثل البهائم جهلًا ، واعلم أن سبب هلاك الملوك اطراح ذوي الفضائل، واصطناع ذوي الرذائل، والاستخفاف بعظة الناصح، والاغترار بتزكية المادح، ومن نظر في العواقب سلم من النوائب، وزوال الدول اصطناع السفل، ومن استغنى بعقله ضل ومن اكتفى برأيه زل، ومن أستشار ذوي الألباب سلك سبيل الصواب، ومن استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول،ومن عدل في سلطانه استغنى عن أعوانه، وعدل السلطان أنفع للرعية من خصب الرمان، والعدل لا يبقى على الجور والأيمان .ويقال :حق على من ملّكه الله على عباده وحكّمه في بلاده أن يكون لنفسه مالكاً وللهوى تاركاً وللغيظ كاظماً وللظلم هاضماً وللعدل في حالتي الرضى والغضب مُظهراً وللحق في السر والعلانية مؤثراً، وإذا كان كذلك الزم النفوس طاعته والقلوب محبته وأشرق بنور عدله زمانه وكثر على عدوه أنصاره وأعوانه .ولقد صدق من قال:

يا أيها الملك الذي بصلاحه صلح الجميع أنت الزمان فإن عدلت فكله أبدًا ربيع

وقال عمرو بن العاص :ملكٌ عادل خيرٌ من مطرٍ وابل، من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه.

:وكل محنة إلى زوال وكل نعمة إلى انتقال

رأيت الدهر مختلفا يدور فلا حزن يدوم ولا سرور وشيدت الملوك به قصوراً فما بقي الملوك ولا القصور

وقال المأمون:

يبقى الثناء وتنفذ الأموال ولكل وقت دولة ورجال

ومن كبرت همته كثرت قيمته .ولا تثق بالدولة فإنها ظلٌ زائل ولا تعتمد على النعمة فإنها ضيفٌ راحل . فإن الدنيا لا تصفو لشارب ولا تفي لصاحب.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري :انصحني، فكتب إليه :أن الذي يصحبك لا ينصحك والذي ينصحك لا يصحبك،وسأل معاوية الأحنف بن قيس وقال له :كيف الزمان؟ فقال أنت الزمان أن صلحت صلح الزمان وإن فسدت فسد الزمان .آفة الملوك سوء السيرة وآفة الوزراء خبث السريرة، وآفة الجند مخالفة القادة وآفة الرعية مخالفة السادة، وآفة الرؤساء ضعف السياسة وآفة العلماء حب الرياسة، وآفة القضاة شدة الطمع وآفة العدول قلة الورع، وآفة القوي استضعاف الخصم ، وآفة الجريء إضاعة الحزم، وآفة المنعم قبح المن وآفة المذنب حسن الظن، والخلافة لا يصلحها ألا التقوى، والرعية لا يصلحها إلا العدل، فمن جارت قضيته ضاعت رعيته، ومن ضعفت سياسته بطلت رياسته .

ويقال :شيئان إذا صلح أحدهما صلح الآخر :السلطان والرعية.

ومن كلام بعض البلغاء :خير الملوك من كفى وكف وعفا وعف.

قال وهب بن منبه :إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته، حتى في التجارات والزراعات وفي كل شيء، وإذا هم بالخير أو عمل به أدخل الله البركة على أهل مملكته حتى في التجارات والزراعات وفي كل شيء، ويعم البلاد والعباد .ولنقبض عنان العبارات النقلية في أرض الإشارات العقلية المقتطفة من نظم السلوك في مسامرة الملوك وغرر الخصائص وغرر النقائص، وهو باب واسع كثير المنافع وملاك الأمر في ذلك حسن القابلية وأن تكون مرآة القلب غير صدية، كما قيل:

إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع أدب الأديب

وقيل :إن الأخلاق وإن كانت غريزية فإنه يمكن تطبعها بالرياضة والتدريب والعادة، والفرق بين الطبع والتطبع أن الطبع جاذب مفتعل والتطبع مجذوب منفعل، تتفق نتائجهما مع التكلف ويفترق تأثيرهما مع الاسترسال .وقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادة الحسنة ولا الأخلاق الجميلة، ونفسه مع ذلك تتشوق إلى المنقبة وتتأنف من المثلبة .لكن سلطان طبعه يأبى عليه ويستعصي عن تكليف ما ندب إليه، يختار العطل منها على التحلي ويستبدل الحزن على فواتها بالتسلي، فلا ينفعه التأنيب ولا يردعه التأديب، وسبب ذلك ما قرره المتكلمون في الأخلاق من أن الطبع المطبوع أملك للنفس التي هي محله لاستيطانه إياها وكثرة أعانته لها. وأما الذي يجمع الفضائل والرذائل فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال بين اللؤم والكرم، وقد تكتسب الأخلاق من معاشرة الأخلاء أما بالصالح أو بالفاسد، فرب طبع كريم أفسدته معاشرة الأشرار وطبع لئيم أصلحته مصاحبة الأخيار .وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل .وقال علي رضي الله عنه لولده الحسن :الأخ رقعة في ثوبك فانظر بمن ترقعه .وقال بعض الحكماء في وصيته لولده :يا بني أحذر مقارنة ذوي الطباع المزدولة لئلا تسرق طباعك طباعهم وأنت لا تشعر وأما إذا كان الخليل كريم الأخلاق شريف الأعراق، حسن السيرة طاهر السريرة فبه في محاسن الشيم يقتدي وبنجم رشده في طريق المكارم يهتدي، وإذا كان سيئ الأعمال خبيث الأقوال كان المغتبط به كذلك، ومع هذا فواجب

على العاقل اللبيب والفطن الأريب أن يجهد نفسه حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ويكتسي حلل الجمال بدماثة شمائله وحميد طرائقه .وقال عمرو بن العاص المرء حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت وإن وضعها اتضعت.

وقال بعض الحكماء :النفس عروف عزوف ونفور ألوف، متى ردعتها ارتدعت ومتى حملتها حملت، وإن أصلحتها صلحت وإن أفسدتها فسدت .وقال الشاعر:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أُطْعِمت تاقت وإلا تسلتِ

وقالوا :من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه، والمنهج القويم الموصل إلى الثناء الجميل أن يستعمل الإنسان فكره وتميزه فيما ينتج عن الأخلاق المحمودة والمذمومة منه ومن غيره، فيأخذ نفسه بما استحسن منها واستملح ويصرفها عما استهجن منها واستقبح .فقد قيل :كفاك تأديبا ترك ما كرهه الناس من غيرك.

ثم سكت الشيخ ونظر إلي السماء وقال :

– اللهم بحرمة سيد الأنام يسر لنا حسن الختام واصرف عنا سوء القضاء وانظر لنا بعين الرضاء

فقلت

– اللهم آمين

ثم سألني الشيخ في اهتمام وقال :

– هل من الممكن أن تسرد لي الأحداث التي وقعت منذ عصر محمد علي باشا حتي العصر الذي تعيش فيه ؟ بل حتي لا يضيع الوقت في تفاصيل الأحداث أذكر لي في عجالة سبب عدم وجود قوة أو دولة كبري يحتمي بها المسلمون في العالم كما وصفت لي

منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع

وهنا تنهدت تنهيدة طويلة وفكرت ثم قلت للشيخ :

– لم تعد هناك قوة عظمي إسلامية يا دولة المسلمين ، لأن الدول الكبري في الغرب وإن اختلفت فهي متفقة علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع الذي يتركز فيه المسلمون وشهد علي مر التاريخ حضارة إسلامية كبري كما يتمتع بخصائص كثيرة متميزة ففيه كل مقومات النجاح لتأسيس تلك الدولة

– اتفقوا علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع ، هذا كلام يدعو للتأمل بالفعل يا بني

– أنت تعلم بالتأكيد يا دولة المسلمين مما قرأت في كتب التاريخ السابقة أنه كانت هناك دائماً دولة إسلامية كبري في هذه المنطقة من العالم ، ويتغير اسمها فقط من دولة الراشدين إلي الدولة الأموية إلي العباسية ثم تأسست دول كبري في ظل الخلافة العباسية مثل الطولونية والإخشيدية ثم سيطر الفاطميون لفترة ثم جاءت الأيوبية فالمملوكية فالعثمانية ، وكانت كل دولة تلتهم سابقتها عندما

تضعف وتفسد ، وكان قد جاء الدور علي محمد علي ليؤسس دولته وتدور عجلة التاريخ مرة أخري ويلتهم الدولة العثمانية الضعيفة ويؤسس دولة مرهوبة الجانب علي أنقاضها كما فعل سابقيه ، ولكن يبدو أن هذه المرة قد فهم أعداء المسلمين التاريخ جيداً ووقفوا إلي جانب محمد علي بحساب وحذر وتحت السيطرة ليقضي علي العثمانيين ثم يلتهموه لمنع وجود مارد جديد في المنطقة

- لقد قمت يا بني بتحليل للموقف بإيجاز رائع ومركز جعلني أفهم الموقف ككل ببساطة شديدة
- أشكرك يا سيدي ، فهذا بعض ما عندكم
- ولكن متي تحديدًا يا بني بدأ تآمرهم علي محمد علي باشا ؟
- لما توغل إبراهيم باشا في الأناضول وأصبح قاب قوسين أو أدني من استانبول اشتركت دول أوروبا في توجيه إنذارها لمحمد علي بالرجوع إلي جحره والانكماش فيه ، وكان تحطيم أسطول مصر غدراً في موقعة نافارين مثلاً آخر علي اتحاد أوروبا وفي مقدمتها فرنسا علي كبح جماح مصر ، ومن السهل ربط خيبة أمل محمد علي ببوادر إصابته بالجنون ، لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له ، والجاهل لا العالم هو الذي يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ علي الحقيقة المرة التي كانت خافيه عليه وهذا الرأي الأول الذي قاله المفكر والأديب الأستاذ يحيي حقي والذي يفترض فيه أن محمد علي كان لا يفهم الموقف الدولي
- فماذا قال عن الرأي الآخر ؟
- يقول : – ومن الجائز الدفاع عن الرأي المضاد القائل أن محمد علي لم يكن غرا حتي يتصور أنه يستطيع إقامة إمبراطورية بمشهد – من أوروبا ، التفسير المعقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر في يده أوراق اللعب ولو ضحي في سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل كل هذه الأوراق لا تلزمه ولا يطمع في الربح منها إلا ورقة واحدة ، وإنما لابد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعاً من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة في يده ، إنها ورقة استيلائه علي عرش مصر حقا له ولذريته من بعده ، فإذا كان محمد علي قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا والأناضول وإذا كان اسطوله قد تحطم فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله علي عرش مصر وكان محمد علي يعلم هذا الثمن وكان مستعداً لدفعه ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته
- إذن فقد انسحب محمد علي من كل هذه البلاد التي انتصرت فيها جيوشه
- ليس هذا فحسب بل إن الدول الكبرى بعد أن أجبرت محمد علي على الانسحاب من كافة الأراضي التي دخلها الجيش المصري عدا السودان قامت بإجباره علي تخفيض عدد الجيش المصري وتم إجباره علي عدم تصنيع سفن حربية وتكوين أسطول مصري أي بمعني أصح تم تقليم أظافره
- فما الرأي الذي تؤيده أنت يا بني ؟

- في الحقيقة يا سيدي أنا مع الرأي الذي يقول أن محمد علي تم استغلاله لتحقيق أهداف معينة وبعد أن تم تحقيق المطلوب منه قاموا بتقليم أظافره
- وهل هناك آراء أخري ؟
- هناك رأي آخر يقول أن الدول الكبري ساعدت محمد علي في البداية عندما أيقنت أن البعد الديني لديه ليس له حساب وأنه من السهل علمنة الدولة علي يديه وإنهاك آخر دولة إسلامية كبري متمثلة في الدولة العثمانية لتقسيمها فيما بينهم كما حدث بعد ذلك وهناك آراء عديدة مختلفة حول شخصية محمد علي التي حيرت المؤرخين فمثلاً يقول أحد المؤرخين وهو الدكتور علي الصلابي عنك تحديدًا يا سيدي (لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب علي مصراعيه لدخول مصر والهيمنة علي اقتصادها ، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر علي الأسواق الأوربية من الناحية الإقتصادية وبالتالي السياسية إلي جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة علي الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامي وأوقف مناهج التعليم القائمة علي الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي في قوله " كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلي حقائق فعالة في مصر)[9] وقد ورد أيضاً عن محمد علي أنه قال للفرنسيين وهو يفاوضهم علي مسألة احتلالهم للجزائر (ثقوا أن قراري – لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي)[10]
- فما رأيك أنت يا بني في كل ما فعله محمد علي ؟
- لا أُخفي عليك يا سيدي ، لقد كنت أتمني أن ينجح محمد علي في تكوين دولة إسلامية كبري مرهوبة الجانب علي أنقاض الدولة العثمانية ، فمهما يكن من أمر كانت المنطقة ستظل في مأمن من الاستعمار الأوروبي الذي أنهكها فكرياً وأفقدها هويتها وزرع داخلها الكيان الصهيوني إلي الآن وقام برسم حدودها بالمسطرة وفتتها إلي عدة قوميات تكره كل منها الأخري وأمدهم بالسلاح ليتقاتلوا وقام بنهب ثرواتهم ونشر عملاءه بينهم ولكن أمنيتي هذه بالطبع تنتج عن تفكير بشري محدود ويتسم بقصور شديد فكلها أمور وأسباب يسببها المولي عز وجل ، بحكمته التي لان ندركها فقد تكون فتن تخوضها الأمة وابتلاء يميز به المولي عز وجل الخبيث من الطيب والله أعلم ، ومهما كان تفكيرنا فلن نصل أبداً إلي الحكمة من كل هذا ولكننا نثق في الله ونتبرأ من حولنا وقوتنا إلي حوله وقوته وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[11]

[11] سورة يونس

---

[9] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٤
[10] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤٠٩

- **سبحانه وتعال (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ٢٣ سورة الأنبياء ، بارك الله فيك يا بني وفي علمك بالتاريخ وهو ما يدفعني للاستفسار منك عن سر تراجع دور العرب عن صدارة المشهد في العالم الإسلامي**

أسباب تراجع دور العرب في العالم الإسلامي :

-السر يا دولة المسلمين -في تقديري الشخصي- في تراجع دور العرب في العالم الإسلامي بالرغم من أن جميع الخيوط كانت في أيديهم في البداية ثم بدأ التنازل عنها خيطاً خيطاً لغير العرب ، السر يكمن في الإسلام نفسه فهو لا يفرق بين عربي وغير عربي ، فأي مسلم في الدولة له كافة الحقوق بغض النظر عن جنسيته ، فقد كان حكم العرب لشعوب غير عربية ليس كحكم الرومان مثلاً لشعوب غير رومانية أو ليس كحكم الفرس لشعوب غير فارسية ، فالموضوع ليس غلبة عنصر علي عنصر ولمزيد من التوضيح سأذكر مثال علي حكم الرومان لمصر ، فقد كان الرومان يحكمون مصر ويعيش فيها الوالي الروماني وقوة من الجيش الروماني وسائر الحكومة الرومانية التي تنظم شئون مصر لصالح روما ، وقد كان للجنس الروماني جميع الامتيازات داخل مصر فلا يجرؤ مصري من المحكومين أن يعيش نفس الحياة التي يحياها أسياده من الرومان ، بل إنه لا يستطيع الحصول علي الجنسية الرومانية ليتمتع بما يتمتع به الرومان مهما فعل ، فهو لا يستطيع أن يتناول دواء معين مثلاً وينتظر قليلاً فيتحول إلي شخص روماني ، وبالتالي سيظل المصري مصري والروماني روماني وسيظل السيد سيد والعبد عبد ، ونفس هذا الكلام ينطبق علي الفرس عندما كانوا يحكمون شعوباً أخري غير فارسية[١١] بل إن نفس الكلام ينطبق علي المصريين أنفسهم عندما كانت لهم إمبراطورية ضخمة في عصر الأسرة ١٨ الفرعونية أيام أمجاد الملك تحتمس الثالث ، فهل كان يستطيع أي إنسان غير مصري أن يتحدي أي مصري في ذلك الوقت ، إنها يا سيدي النعرة العنصرية البغيضة سواء كانت رومانية أو فارسية أو مصرية والتي لا توجد في دولة المسلمين ، فعندما حكم العرب العالم الإسلامي لم يكن غلبة عنصر علي عنصر وبالتالي فإن أي شخص غير عربي بمجرد دخوله الإسلام فله أن يصل إلي أعلي مناصب الدولة فلا تمييز بين عربي وحبشي ومصري وأبيض وأسود فالكل في الإسلام سواء ويعتبر هذا من الأسباب المهمة التي أعطت الفرصة لغير العرب لقيادة العالم الإسلامي في جميع المجالات ولكن هناك أسباب أخري منها الاعتماد علي عناصر غير عربية في الجيش وكان هذا في البداية بإرادة عربية كاملة في ذلك الوقت ، كما أن الدولة العباسية عند قيامها انفتحت علي باقي الحضارات والثقافات الأخرى وأعطت الفرصة للعديد من الشخصيات الغير عربية لتصبح شخصيات بارزة في الدولة ، وهناك العديد والعديد من الأسباب ولكن علي أي حال لم يكن الإسلام ليسمح بالتمييز علي

[١١] واقرب مثال قريب علي ذلك الاحتلال البريطاني لمصر في التاريخ المعاصر وكيف كان للإنجليز في مصر وضع خاص يتميز عن المصريين

أساس الجنسيات بل إن باقي الأديان السماوية كانت تعيش في ظل الحكم الإسلامى أفضل بكثير من غيره .

- فهل تم تغيير هذا الوضع وأصبحت العنصرية منتشرة في الدولة العثمانية ؟

- أجل يا سيدي فقد أوقع الغرب بين العرب والأتراك

- كيف ؟

القومية العربية ضد القومية التركية ؟ :

- حدثتك يا سيدي عن العرب وكيف تراجع دورهم في إطار دولة المسلمين الكبري إلي أن ضاعت منهم الخلافة نفسها ، وأصبحت الدولة العثمانية هي الدولة المسئولة عن العالم الإسلامي كله بما فيه من جنسيات مختلفة ومنهم بالطبع العرب وكانت الدولة العثمانية هي آخر دولة إسلامية ذات سيادة علي المستوي العالمي وكانت آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب ويعمل لها العالم ألف حساب إلي أن قرر الغرب القضاء عليها باستخدام العرب أنفسهم كأحد وسائل الضغط عليها وبالتالي قام الغرب بتنمية القومية العربية لتواجه الدولة العثمانية وتكون طعنة في ظهرها أثناء الحرب مستغلة أن حكم الأتراك في ذلك الوقت كان قاسياً ولا يُرضي الشعوب العربية التي كانت لا تدرك طبيعة المخطط لها وهو ببساطة شديدة استبدال حكم الدولة العثمانية باحتلال إنجليزي وفرنسي للدول العربية التابعة لها ، وقد أدركت الدولة العثمانية هذا المخطط وعملت علي إجهاضه وتعاملت بكل حسم مع جميع الأنشطة التي تدعو للقومية العربية والتي ستؤدي إلي انقسام الأمة الإسلامية ، وكانت الدولة العثمانية علي دراية تامة بأنها في حالة التنازل عن الأراضي العربية فإن العرب لن يتمكنوا من إيقاف الزحف الاستعماري الذي يستهدف بلادهم وبالتالي عملت الدولة العثمانية علي وقف هذه المحاولات بكل قوة ولكن للأسف كان العرب قد تأثروا بالفعل بهذه المحاولات حتي قاموا بثورة ضد الدولة العثمانية ثم سقطوا بعد ذلك في مستنقع الاحتلال الغربي الذي تعامل معهم بشكل مختلف تماماً عن الدولة العثمانية ويقول المفكر والأديب الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع (ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شئ قد مهد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا ، وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب البائسة ، حتي إذا استقرت لهم الأمور تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه ، وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم ، كانوا عبيدًا أو كالعبيد لقوم يمتون لهم ببعض الأسباب[١٢] ، فأصبحوا عبيدًا أو كالعبيد لقوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شئ ولا يقاربونهم في شئ)[١٣]

---

[١٢] ربما كان يقصد الدكتور طه حسين هنا الرابطة الإسلامية التي كانت تربط العثمانيين بالعرب ، ثم لم تعد هناك أي رابطة من أي نوع بين الاحتلال الغربي والعرب .

[١٣] كتاب " مرآة الإسلام " طه حسين صفحة ٣٠٤ – دار المعارف – طبعة ١٩٥٩

- فمن كان يا بني آخر خليفة عثماني ؟

عبد الحميد الثاني١٤ الخليفة الأخير ١٥ :

- يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني (مجازاً) هو آخر الخلفاء الحقيقيين في الدولة العثمانية وقد بذل جهوداً ضخمة في سبيل الحفاظ علي تماسك الأمة الإسلامية وقد واجه العديد من المشاكل داخل وخارج الدولة ، ففي داخل الدولة كان هناك من يرمي نفسه في أحضان الغرب ويعمل علي نشر كل ما هو غربي في الدولة العثمانية وتحويلها إلي دولة علمانية ذات قوانين وضعية غربية ونشر الثقافة الغربية وكذلك جعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدولة ومحو اللغة العربية التي هي لغة القرآن والعالم الإسلامي ،بينما كان السلطان عبد الحميد يسعي إلي التعريب لوعيه بأهمية اللغة في الحفاظ علي تراث وكيان الأمة كما كان حريص علي تطبيق الشريعة الإسلامية وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية ، ويقول الكاتب التركي الأستاذ نجيب فضل : (- ولخلو الإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد تُرِك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له ، وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل وذبول الإرادة وعموم الشلل" -، وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين)١٦ ، وهكذا سيدي الشيخ نجد أن السلطان عبد الحميد قد واجه مشاكل بالجملة من الداخل وكذلك محاولات فصل القوميات المختلفة الموجودة داخل الدولة العثمانية ومن بينها القومية العربية بالطبع ، وقد كان الأتراك الذين يريدون تقليد الغرب في كل شئ يسمون أنفسهم بالإصلاحيين١٧ بالطبع ، ويقول عن ذلك السلطان عبد الحميد في مذكراته (التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبب في اضمحلالنا ، تُري لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات ، لا شك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء علي هذه الإمبراطورية ، إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات ، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد ، وألا نقيس الأوضاع علي أساس المستوي الفكري لحفنة قليلة من الموظفين ، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوروبي ، الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملة وتفصيلاً ، لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين ، علينا أن نتطور تحت ظروف

---

١٤ (هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية وهو من مواليد ١٨٤٢) الدولة العثمانية –د علي الصلابي صفحة ٤٦٩

١٥ لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني آخر خليفة في الدولة العثمانية ولكن بعد أن تعرض لمؤامرات أدت إلي خلعه من السلطنة والخلافة (تولي السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد ، إلا أنه في الحقيقة لم يملك أي سلطة فعلية ، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي ، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها ، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها) الدولة العثمانية- د علي الصلابي صفحة ٥٤٣

١٦ الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٤٨

١٧ الإصلاح – كم من الجرائم تُرتكب باسمك ؟

طبيعية ، ومن تلقاء أنفسنا ، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة[١٨] ، ومن الظلم الفادح أن نُتهم بمعاداة كل شئ يأتي من الغرب)[١٩]

السلطان عبد الحميد واليهود

كان زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية تيودر هرتزل يحاول الحصول من السلطان عبد الحميد علي فلسطين لليهود وبذل عدة محاولات لإغراء السلطان بالمال الوفير والمساعدات الدبلوماسية المختلفة التي يمكن لليهود أن يقدموها للدولة العثمانية ولكن كان إصرار السلطان علي عدم الموافقة (وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلي هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها :" انصح صديقك هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأني لا أستطيع التنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة ، لأنها ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي ، وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ، وروووها بدمائهم ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، إذا مزقت دولتي من الممكن الحصول علي فلسطين بدون مقابل ، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً بجثتنا ، ولكن لا أوافق علي تشريح جثتي وأنا علي قيد الحياة ")[٢٠] ، وكان من الطبيعي أن يعمل اليهود علي الإطاحة بالسلطان أولاً كخطوة مهمة في تحقيق هدفهم وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك (ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال :" إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم ، مستمراً فيه ")[٢١]

– أي أن اليهود يا بني هم الذين عملوا علي الإطاحة بالخليفة عندما رفض توطينهم في فلسطين ، ولكن ماذا فعل السلطان ليتوخي الحذر من مكرهم ؟

– كانت الدعوة للجامعة الإسلامية من الأهداف التي يتمني السلطان عبد الحميد الثاني تحقيقها لدعم ترابط العالم الإسلامي قبل أن تذهب به القوميات المختلفة المنتشرة في الدولة العثمانية ومن بينها القومية العربية إلي تفكك يؤدي إلي الضعف والاضمحلال وبالتالي التعرض لهجمة استعمارية شرسة ، و(بالرغم من أن حركة الجامعة الإسلامية كانت تهدف – ضمن ما تهدف – إلي إضعاف فكرة القومية العربية ، إلا أن فشل المشروع الإسلامي كان من عوامل قوة الفكرة العربية واستمرارها ، بل وتحولها إلي حركة سياسية لها برامج وأحزاب وجمعيات)[٢٢] ، وبالرغم من أن كبار العلماء المسلمين مثل

---

[١٨] الحالات الخاصة قد يكون مقصود بها التقدم العلمي في مجال الكيمياء والفيزياء والهندسة وما إلي ذلك وليس فلسفة ومنهج الحياة نفسها

[١٩] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٥١

[٢٠] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢١

[٢١] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢٦

[٢٢] كتاب (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٥٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

الأفغاني ومحمد عبده كانوا يعلمون أن الدولة العثمانية[٢٣] في حالة من الضعف تجعلها غير مؤهلة لقيادة الجامعة الإسلامية إلا أنهم وجدا فيها أفضل ما هو موجود علي الساحة الإسلامية ، ويظهر ذلك من قول محمد عبده :" إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوي شعوب الإسلام ، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق علي حياته[٢٤]

– فماذا كان موقف الغرب من الجماعة الإسلامية ؟

– (إن الاستعمار قد عمل بكل قوة لمنع هذه الحركة الإسلامية من الظهور والنجاح ، حيث وجد فيها الإنجليز خطراً شديداً علي إمبراطوريتهم التي تمتد إلي الهند وتسيطر علي ما يقرب من خمسين مليون مسلم لو اتحدوا لأطاحوا بالجيوش البريطانية إلي المحيط الهندي ، وقد وجد الإنجليز والفرنسيون أيضاً في فكرة القومية العربية قطباً مضاداً لحركة الجامعة الإسلامية[٢٥] ، فتبنوها وشجعوها وغذوها بالمال والأفكار والتأييد ، مما جعلها تقوي وتنشط بعد أن كادت أن تختفي في مواجهة التيار الإسلامي الجارف)[٢٦] {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ}(٤٢) سورة إبراهيم

– فمتي اندلعت الحرب بين الغرب والدولة العثمانية وكيف سارت الأمور ؟

– عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولي وأعلنت الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم (وجدت إنجلترا أن في الأمر خطورة قد تهددها بدخول حرب واسعة ضد المسلمين في جميع أرجاء المعمورة ، خاصة وأن هناك نحو خمسين مليون مسلم تحت حكم إنجلترا في الهند فقط ، أضف إلي ذلك مسلمي مصر والسودان والخليج العربي وغيرها من البلدان التي تحت سيطرتها ، ولذلك أخذ الإنجليز الأمر علي محمل الجد ، وبعد بحث وتدقيق وجد الإنجليز أنه من الممكن إبطال مفعول تلك الفتوى المتضمنة إعلان الجهاد من سلطان ومفتي الدولة العثمانية عن طريق الحصول علي فتوى معارضة من شخصية إسلامية يكن لها العالم الإسلامي كل الاحترام والتقدير ، وقد وجد الإنجليز

---

[٢٣] (بالمناسبة عندما سألوا فؤاد باشا الصدر الأعظم في الدولة العثمانية أثناء زيارته لأحد الدول الأوروبية قبل أن يتمكنوا من هزيمة الدولة العثمانية بعد وقالوا له : ما هي أقوي دولة في العالم الآن ، فرد قائلاً : أقوي دولة الآن هي الدولة العثمانية ، ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ، ونحن نهدمها من الداخل ، ولم يستطع كلانا هدمها) الدولة العثمانية د علي الصلابي صفحة ٤٧١

[٢٤] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٢-٦٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٢٥] (يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي " إن السلطان عبد الحميد ، كان يهدف من سياسته الإسلامية ، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة ، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة ، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين) الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٩١

[٢٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

ضالتهم في شريف مكة الحسين بن علي[٢٧] ، كما وجدوا أن تشجيع العرب علي الثورة ضد الأتراك سوف يؤدي إلي نفس النتائج [٢٨]

- فكيف تواصلوا مع شريف مكة ؟

- قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشريف حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية (--- وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ أكتوبر ١٩١٤ عن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون ، الذي حثه علي الخروج عن سلطة الأتراك ، وعلي الإبقاء علي سلامة الحج للرعايا المسلمين التابعين للحلفاء وذلك بتقديم المعونة له ، وبضمانة استقلاله وسيادته في المستقبل [٢٩] وعندما طلبت منه الدولة العثمانية تحديد موقفه من إعلان الجهاد استطاع الشريف حسين المماطلة حتي يعيد ترتيب أوضاعه ويستعد للثورة (ولما أحس القوميون العرب بمماطلة الحسين للأتراك وتيقنوا عدم نيته دخول الحرب إلي جانبهم ، سارعت جمعية العربية الفتاة بدعوته للتنسيق معها من أجل القيام بثورة عربية مستغلين انشغال تركيا في الحرب ، وقد وصلته الرسالة بالفعل في الأسبوع الأخير من يناير ١٩١٥ -والحقيقة أن الرسالة قد لفتت نظر الحسين إلي محور مهم يعطي موقفه ثقلاً كبيراً عند التفاوض مع مكماهون ولذلك قرر الاتصال بالقوميين العرب في الشام والعراق قبل أن يرد علي رسالة مكماهون [٣٠] وقد قام الأمير فيصل بن الحسين بالتنسيق مع القوميين العرب حيث قاموا بإعداد مخطط باسم بروتوكول دمشق وتم فيه توضيح حدود الدولة العربية التي يجب أن تعترف بها إنجلترا خلال المفاوضات (وفي ١٤ يوليو ١٩١٥ أرسل الشريف حسين رسالته الأول إلي مكماهون - - والتي جاء فيها المطالبة باعتراف بريطانيا بدولة عربية بالحدود المذكورة في بروتوكول دمشق ، والموافقة علي إعلان خليفة عربي للمسلمين ، مقابل أن تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل المشروعات الاقتصادية في البلاد العربية) وكانت في هذه الفترة انجلترا وفرنسا لم تصل إلي اتفاق نهائي بعد حول تقسيم الدول العربية بينهما ، (وبذلك وجد مكماهون أنه لا يستطيع تقديم وعود للحسين قبل أن تتضح الصورة في المفاوضات التي كانت لا تزال مستمرة بين انجلترا وفرنسا [٣١] وبالتالي قام مكماهون برد مائع ووعود تشجيعية ولكنها غير محددة ، لكن أصر الحسين في رسالة بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٥ إلي مكماهون علي أن مسألة الحدود

---

[٢٧] كانت هناك شخصيات معينة في الدولة العثمانية تقلق الخليفة ويشعر بأنهم لا يدينون للدولة العثمانية بأي ولاء ولذلك كان يجعلهم يقيمون بجواره في عاصمة الدولة ولا يسمح لهم بمغادرتها حتي يأمنهم ومن هؤلاء شريف مكة الحسين بن علي (وقد عبد السلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا ، قال السلطان :" إن الشريف حسين لا يحبنا ، إنه الآن هادئ وساكن ، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً " - - لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلي ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد ، فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني ، أعاد الشريف حسين إلي مكة ، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنجليز) الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٠٩

[٢٨] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٢٩] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٠] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

لا تحتمل المراوغة مما اضطر مكماهون إلي أن يكذب عليه ويعده في ١٥ أكتوبر ١٩١٥ بالاعتراف باستقلال العرب طبقا للحدود الواردة في رسالة الحسين مع بعض التعديلات البسيطة وبعد قليل من الأخذ والرد بخصوص حدود الدولة العربية التي كان يحلم بها الحسين تمت الموافقة بين الطرفين (وعلي هذا الأساس دخل العرب الحرب العالمية الأولي ، عندما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في ١٠ يونيو ١٩١٦)[٣٢] وكانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا اتفاقية سايكس–بيكو[٣٣] التي قسمت فيها الدولة العثمانية بدون علم الشريف حسين

– وهكذا أوقع الإنجليز بين العرب والترك

– نعم وهم الذين كانوا يمثلون معاً دولة المسلمين الكبري في ذلك الوقت ، وطبعا سيدي الشيخ يمكننا الآن إعادة تأمل ما قاله الشيخ محمد عبده : (حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما)

– وكيف حدثت الثورة العربية وكيف دارت أحداثها ؟

الثورة العربية ضد الدولة العثمانية :

– هاجمت القوات العربية ثكنات الجيش التركي في كل مدن الحجاز وفي أقل من ثلاثة أشهر نجح الجيش العربي في الاستيلاء علي مدن الحجاز جميعها ، ما عدا المدينة المنورة التي استماتت الحامية التركية في الدفاع عنها –وبعد أن تمت السيطرة علي معظم المدن الرئيسية في الحجاز ، وتَدعم الجيش العربي نتيجة لفرار كثير من الضباط العرب من الجيش العثماني وانضمامهم إلي الجيش العربي ، ونجحوا في إعادة تنظيمه علي أسس الجيوش النظامية ، كما أمدتهم إنجلترا بالأسلحة والمعدات ، وفي يناير ١٩١٧ بدأت القوات العربية تتقدم شمالاً نحو الشام –وبعد أن تأكدت إنجلترا من اشتراك العرب في الثورة ومن تورط الشريف حسين في الحرب ضد الأتراك بحيث انقطع عليه خط الرجعة ، سارعت بتوجيه الطعنة الثانية – بعد سايكس بيكو – إلي العرب فأصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تصريح بالفور الذي ينص علي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[٣٤] ، وكان القائد العثماني في الشام اسمه جمال باشا وقد حاول جمال باشا أن يوضح للعرب الخدعة التي قام بها الإنجليز ضدهم ولكن دون جدوى (حيث وجد نفسه معرضاً لخطر مواجهة جيشين في وقت واحد : الجيش العربي يقوده فيصل بن الحسين ويتقدم من شرق الأردن نحو دمشق ، والجيش البريطاني يقوده الجنرال اللنبي ويتقدم من القدس –بعد أن نجح في احتلالها – فأرسل جمال باشا إلي فيصل برسالة في ١٢ ديسمبر ١٩١٧ تحتوي علي نص اتفاقية سايكس بيكو التي نُشِرت في الصحف الروسية ، ويوضح له

---

[٣٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٦– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٣] نسبة إلي أسماء المفاوضين : الإنجليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو

[٣٤] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٣

أن التعاون مع الحلفاء لن يؤدي إلي استقلال العرب كما يعرض عليه عقد الصلح بين العرب والأتراك ، لمواجهة أطماع الحلفاء التي أصبحت مكشوفة للعيان ويطلب من فيصل الحضور إلي دمشق للتفاوض علي أساس منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً تتحقق به جميع أمانيهم القومية)[٣٥]

– وبالطبع كانت هذه الرسالة صدمة لفيصل فماذا فعل ؟

– قام بإرسال الرسالة إلي والده الحسين فقام الحسين بإرسال هذه الرسائل إلي المندوب السامي البريطاني في مصر في ذلك الوقت ريجنالد وينجت يطلب منه تفسير لها ، وطبعا وينجت شكره علي أنه أطلعه علي هذه الرسائل وأكد له أنها كانت مجرد محادثات مؤقتة لم تتم وأن جمال باشا قام بالتبديل فيها فلا تجعله يخدعك ، (وتقبل الملك حسين الرسالة والمذكرة علي ظاهرهما وقعد مستريح البال لأن إيمانه بالمعاملة النظيفة في مقاييس الخلق الإنجليزي لم يكن قد تزعزع بعد)[٣٦] وكما حدث مع سايكس بيكو حدث بعد ذلك عندما علم الحسين بوعد بالفور لليهود وقام أيضاً بالاستعلام عن حقيقة الأمر من الحكومة البريطانية (وقد أرسلت الحكومة البريطانية القائد هوجارث ليقابل الملك حسين في جدة ويشرح له الهدف من التصريح ، وقابله بالفعل مرتين في يناير ١٩١٨ ، وأكد له باسم الحكومة البريطانية أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، وعلي هذا الأساس وافق الحسين علي أن يهيئ لليهود في فلسطين ملجأ آمناً من الاضطهاد ، ولكنه أكد علي أن مسألة التنازل عن مطالب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث أبداً)[٣٧]

– سبحان الله ، إيمانه بالمعاملة النظيفة في مقاييس الخلق الإنجليزي لم يكن قد تزعزع بعد ، ألم يعرف ما فعله الإنجليز في مصر عند احتلالها ، وبالمناسبة يا بني ماذا كان يحدث في مصر في تلك الفترة ؟

– (لم تشهد البلدان العربية الأفريقية تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل الحرب ، فقد احتفظت فرنسا بتونس والجزائر ومراكش واحتفظت أسبانيا بالريف ، أما إيطاليا فاحتفظت بالساحل الليبي ، في حين ظلت داخلية ليبيا تحت حكم السنوسيين ، ومصر والسودان تحت الاحتلال البريطاني المباشر ، ولم يكن للحركة العربية صدي كبير في تلك البلدان ، فقد كانت ميول معظم العرب الأفارقة مع الدولة العثمانية ، حيث كان هدفهم التخلص من الاستعمار الأوروبي عن طريق التمسك بفكرة الجامعة الإسلامية ، كما سعي السنوسيون إلي التحالف مع الأتراك وهاجموا مصر من ناحية الغرب وشغلوا جزءاً كبيراً من جهد وتركيز القوات البريطانية في مصر حينما كان الأتراك يهاجمون قناة السويس ، وفي مصر نفسها ، كانت قلوب المصريين مع الأتراك ، بينما كانت أجسادهم مع الإنجليز ، فقد نجح

[٣٥] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٤
[٣٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٦
[٣٧] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٧

الإنجليز في حشد فيالق العمال والجنود المصريين للمشاركة بجهودهم في ميادين القتال المختلفة خاصة في حملة الدردنيل ، وحملة اللنبي علي الشام ، وفي بداية الحرب نجح الإنجليز في تنمية العامل الوطني المصري ، ليلعب دوراً مضاداً للحركتين الإسلامية والعربية ، فأزاحوا الخديو عباس حلمي عن أريكة الخديوية لميوله العثمانية وأعلنوا مصر محمية بريطانية ، ونصبوا عليها حسين كامل سلطاناً ، وتتالت وعودهم للمصريين – كما كان الحال للعرب – بحصولهم علي حق تقرير المصير بعد الحرب – وبعد الحرب ونتيجة لهزيمة الدولة العثمانية ، ثم اختفائها من الوجود بعد قليل ، توارت فكرة التحالف مع الدولة العثمانية ، وظهر التيار الوطني يطالب باستقلال مصر ، لا عودتها إلي تركيا ، ولا اندماجها في وحدة مع البلاد العربية الأسيوية التي كانت الحركة العربية فيها في ذروة نشاطها ، – ولكن تيار الوطنية المصرية كان هو الآخر في ذروة نشاطه متمثلاً في ثورة ١٩١٩)[٣٨]

– فماذا حدث بعد الحرب ؟

– لن أشغل بالك سيدي الشيخ بتفاصيل ما تم لوعود الإنجليز للعرب بعد انتهاء الحرب فقد حصلوا علي لا شئ باختصار شديد ، وحتي لا أجعلك تتميز غيظًا بأحداث مثيرة للأعصاب وخصوصا تفاصيل طرد فيصل بن الحسين من دمشق بأسلوب مهين بواسطة القوات الفرنسية ، وعموماً يا سيدي بشكل عام أصبحت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا وفلسطين والعراق من نصيب إنجلترا (وفي فبراير ١٩٢١ ظهر في شرق الأردن فجأة الأمير عبد الله بن الحسين الذي أخذ يحشد قواته في عَمَّان ويجمع القبائل التي حولها لمهاجمة دمشق والانتقام لطرد أخيه فيصل ، وقد اتصلت به الحكومة البريطانية وشجعته علي البقاء في عمان والاعتراف به حاكماً علي شرق الأردن علي أن تقدم له مساعدات مادية ويخضع للرقابة والمشورة البريطانية من خلال مندوب بريطاني يقيم في عمان وتم الاتفاق علي ذلك فعلاً في لقاء عقد في القدس بين الأمير عبد الله ووزير الخارجية البريطاني في ذلك الوقت ونستون تشرشل)[٣٩]

– وبالطبع أدرك الأمير عبد الله بما فعله أن هؤلاء القوم لا يفهمون إلا لغة القوة

– ولذلك جعلوا منه ملكًا ولكن بشرط أن يحكم تحت رعايتهم وإشرافهم ، – وبالطبع تم تقسيم الدولة العثمانية طبقًا لما اتفقوا عليه فيما بينهم[٤٠] ، فأصبحت مستعمرات أوروبية وحان الوقت لعمل التقسيم الذي يضمن عدم توحيدها مرة أخري تحت أي مسمي فقد (فرض الاستعمار علي العالم العربي نوعا من التجزئة الأرضية لا تقبل الوحدة ، وعمل علي إقامة الحواجز بين العرب ومنع الاتصال وتبادل الأفكار ، فقامت فرنسا بفصل لبنان عن سوريا وضم جبل لبنان إليه ليصبح لبنان الكبير بحدوده الحالية ، ثم عمدت إلي سوريا فقسمتها إلي أربعة دويلات : دمشق وحلب والدروز والعلويين وقامت

---

[٣٨] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٥٢

[٣٩] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٢

[٤٠] علي فكرة سيدي الشيخ دولة المسلمين كانت قبل الاستعمار رقعة واحدة بلا حدود علي الإطلاق ولا قوميات ولا جنسيات

بريطانيا بفصل شرق الأردن عن فلسطين ، وسعت لخلق دولة صهيونية في فلسطين ، وكان من أهم أهداف التجزئة فصل المناطق الداخلية من العالم العربي عن سواحلها ، ثم الاستيلاء علي النقاط الإستراتيجية المهمة في تلك السواحل ، فقامت إنجلترا بفصل عدن وحضرموت والمحميات عن قلب الجزيرة العربية ، كما حرمت الجزيرة من ساحلها الشرقي بتمسكهم بحماية إمارات الخليج مثل الكويت والبحرين وقطر وعمان وكذلك حرموا شرق الأردن من ساحلها علي البحر المتوسط بفصلها عن فلسطين ، كما حرمت سوريا من جزء كبير من ساحلها بفصل لبنان ، كما تم فصل إقليم الريف ومنحه لأسبانيا ليصبح معزولاً عن بقية المغرب وحتي ساحل الصومال كانت تتقاسمه ثلاث دول أوروبية هي : إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وعندما عجز الاستعمار عن إيجاد حدود طبيعية لتمزيق أوصال الوطن العربي لجأ إلي الحدود المصطنعة أو الفلكية التي لا وجود لها علي الطبيعة ، فالحد الفاصل بين مصر وليبيا هو مجرد خط مرسوم علي الخريطة يتماشي مع خط طول ٢٥ شرقاً وكذلك خط الحدود بين مصر والسودان يتماشي مع دائرة عرض ٢٢ شمالاً)[٤١]

– ولكن يابني ، الأرض المجزئة من الممكن أن تعود مرة أخري بطريقة أو بأخرى

– لذلك يا سيدي الشيخ لجأ الاستعمار إلي طريقة أكثر خبثاً ومكراً لتمزيق دولة المسلمين العربية وذلك بإدخال العامل البشري في الموضوع بحيث يجعل علي كل منطقة منهم ملك له عرش وبالتالي عندما يقترح أي شخص أن تتم الوحدة فسيتساءل الجميع من من الملوك سوف يكون ملكا علي الجميع ؟ وهي خطة خبيثة ومحكمة وعن هذا الموضوع يقول الدكتور عماد أحمد هلال مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية التربية جامعة قناة السويس في كتابه الممتع "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ " والذي قام بفضح جميع المخططات الاستعمارية ضد العرب وقمت بالاستعانة به خلال حديثي معك : (لم يكتف الاستعمار بتجزئة العالم العربي إلي دويلات منفصلة ، وإنما عمل علي خلق أسر حاكمة لتلك الدويلات ، وإلهائها بعروش وهمية ، وتشجيع روح التنافس والعداء بين تلك الأسر ، فمن ذلك أن إنجلترا – عملت علي خداع الشعب العراقي باستدعاء فيصل بن الحسين الذي كان قد طُرِد من سوريا وجعلته ملكًا علي العراق تحت وصايتها ، فكان مجرد ألعوبة في أيدي البريطانيين ، كما جعلت من أخيه عبد الله ملكًا علي شرق الأردن ، وعملت علي استحكام العداء بين الهاشميين " أبناء الشريف حسين" وبين السعوديين ، وشجعت عبد العزيز بن سعود علي الهجوم علي الحجاز وطرد الملك حسين منها – وفي هذا الإطار اشتعلت روح التنافس بين الأسرة السعودية والأسرة العلوية في مصر ، وهي منافسات قديمة ترجع إلي عصر محمد علي الذي قضي علي الدولة السعودية الأولي ، ولكنها تجددت بفعل رفض السعوديين العادات المصرية في الحج والتي كانت تتمثل في المحمل والصرة وما كان يأتي معهما من موسيقي واحتفالات ، وقد أدي ذلك إلي قطع العلاقات السياسية بين مصر

[٤١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٣- ١٧٤

والسعودية)٤٢ وهكذا سيدي الشيخ استطاع الاستعمار أو ما يمكن أن نسميه الاستخراب تقطيع أوصال الأمة بعد أن كانت قطعة واحدة بحاكم واحد فأصبحت قطع كثيرة بحكام متنافرين ، كما عمل الاستعمار علي إثارة النعرات الطائفية : حيث (لم يترك الاستعمار تلك الوحدات المجزأة لتعيش في سلام ، بل عمل علي خلق المشكلات لها ، من خلال إثارة النعرات الطائفية واستثارة الأقليات الموجودة في داخل الوطن العربي ، ففي العراق لعب البريطانيون دوراً كبيراً في إثارة المشكلة الكردية وتجسيدها لتظل شوكة في جانب الوحدة القومية لسكان العراق ، ولقد ظل سلاح الأقليات من أقوي الأسلحة التي كانت بريطانيا تشهرها في وجه الوطنية العراقية ، فهناك إلي جانب الأكراد أقليات أخري كثيرة كانت بريطانيا تدعمها مثل الإيرانيين والأتراك والأشوريين والتركمان واليهود وغيرهم ، وإذا كان الإنجليز قد نجحوا في إعاقة الحركة الوطنية العراقية – بورقة الأقليات ، فإنهم قد فشلوا في اللعب بتلك الورقة في مصر ، حيث باءت محاولاتهم الإيقاع بين المسلمين والمسيحيين بالفشل الذريع ، وقد اتخذ المصريون من الهلال والصليب شعاراً لثورتهم في عام ١٩١٩ – وفي السودان سعي الإنجليز إلي عزل الجنوب ، وأغلقوا حدوده ومنعوا التجار الشماليين من السفر إلي الجنوب أو تجار الجنوب من السفر إلي الشمال إلا بتصريح خاص ، وأحاطوا المنطقة بسياج من العزلة لمنع توغل التأثيرات الإسلامية والعربية إلي الجنوب ، ثم تركوها مجالاً مفتوحاً للإرساليات التبشيرية الأوروبية ، فكانت النتيجة أن خلقت بريطانيا للسودان مشكلة عاني منها كثيراً ولا يزال يعاني)٤٣ ، وهي حاليًا انقسمت إلي دولتين ، دولة السودان ودولة جنوب السودان

– إنا لله وإنا إليه راجعون ، فماذا حدث بعد ذلك ؟

–كما قام الغرب بتنمية الروح القومية عند العرب وأثاروا النعرة العربية والقومية العربية إلي أن قامت بتحقيق أهدافها والمساعدة الضخمة في القضاء علي آخر دولة في تاريخ الإسلام وهي الدولة العثمانية ، وبهذا قد انتهي دور القومية العربية وحان الوقت للقضاء علي الهوية الثقافية العربية حيث (عملت القوي الاستعمارية المختلفة علي القضاء علي الهوية الثقافية العربية وطمسها ، لمحو واحد من أهم أسس القومية العربية عن طريق التهجم علي التراث الثقافي العربي ، وقطع الصلة بين العرب وماضيهم والتقليل من إضافات العرب إلي التراث الإنساني ، فحاولوا رد الحضارة العربية " الإسلامية" إلي أصول يونانية وفارسية وهندية ، وأخذت الدوائر التعليمية المتأثرة بالاستعمار تروج لهذه الفكرة ، وتابع الاستعمار هجومه علي الأدب العربي ، وانقض المستعمرون علي اللغة العربية كأداة اتصال وتفاهم بين العرب ووعاء لفظ تراثهم الثقافي ، فنادي دعاة الاستعمار باستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية مثلما حدث في تركيا ، كما ارتفعت أصوات تطالب بنبذ العربية الفصحى وجعل اللهجة

---

[٤٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٤-١٧٥

[٤٣] مقتطفات من صفحتي ١٧٦ ، ١٧٧ من كتاب (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال

العامية لغة التعليم والصحافة ، محاولين بذلك قطع الصلة بين العرب وتراثهم ، وفي نفس الوقت حاربوا التعليم وحددوا مناهجه ، وقصروه علي فئة قليلة ، كما سيطروا علي وسائل الثقافة العامة كالصحافة والطباعة والإذاعة ، وظهرت دعوات لإحياء ثقافات ماتت وانقرضت ، فبث المستعمر الدعوة إلي الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق)٤٤ وبعد كل هذا يزعم البعض أنه لا وجود لنظرية المؤامرة علي العالم الإسلامي ، أما بالنسبة للغة وأهميتها في توحيد أي أمة فيقول الدكتور عماد هلال (اللغة هي الروح بالنسبة للأمة ، فهي وسيلتها للحفاظ علي تراثها ، وأداة التواصل بين الأجيال ، كما تدعم الديمقراطية في المجتمع بفضل وحدة أداة التعبير ولذلك كان المستعمر يسعي دائماً لمحاربة اللغة وفرض لغته علي الأمم التي يفرض سيطرته عليها ، فقد عمل الإنجليز ذلك في الهند ، والهولنديون في اندونيسيا ، والفرنسيون في الجزائر والإيطاليون في ليبيا ، وهكذا كل دولة استعمارية كان أول همها الهجوم علي القلعة الأولي في كيان أي قومية من القوميات الخاضعة لنفوذها ، وهي اللغة ، بهدف إضعاف الوحدة الفكرية بين أبناء القومية الواحدة وربطهم فكريا وثقافيا بالمستعمر)٤٥ ، أما بالنسبة لمصر فيقول الدكتور عماد هلال : (لا توجد أية شواهد تؤكد أن مصر كان لها دور إيجابي ملموس في الحركة القومية العربية في مراحلها الأولي ، فلم تظهر جمعيات مصرية سرية أو علنية ذات طابع قومي عربي ، واقتصر دور مصر علي استضافة الزعماء العرب المنفيين والهاربين من بطش الأتراك ، ولم تكن مصر تفعل ذلك بدافع من العروبة أو القومية العربية ، وإنما كانت تفعل ذلك بتوجيه من سلطات الاحتلال البريطاني الذي كان يحتضن الجمعيات العربية بهدف ضرب تركيا ، وقد أدي ذلك إلي معارضة كثير من المصريين للحركة القومية العربية التي كانت تنادي بالانفصال عن تركيا ، خاصة وأن مصر كانت تعقد حبال الأمل علي الدولة العثمانية لتخلصها من نير الاحتلال البريطاني ، وفي هذا الطريق سار مصطفي كامل ومن بعده محمد فريد ، وبالتالي كان صدي نداء الجهاد الذي أعلنه السلطان العثماني أكثر تأثيراً في المصريين من نداء الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين ، كما نظر المصريون إلي الزعماء العرب اللاجئين إلي مصر نظرة ريب وتشكيك ، باعتبارهم متمردين علي دولة الخلافة وعملاء للاستعمار ، ويعيشون في حمايته ، خاصة وأن بعض هؤلاء الزعماء اضطروا إلي منافقة سلطات الاحتلال البريطاني التي تأويهم وتوفر لهم مجال العمل بحرية ضد الأتراك ، وخير مثال علي ذلك جمعية بيروت السرية الذين هربوا إلي مصر وأسسوا فيها جريدة المقطم التي كانت لسان حال الاحتلال البريطاني في مصر لسنوات عديدة ، ولكن هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولي ، ومن ثم انتهت نظرة المصريين لها كمخلص من الاحتلال البريطاني ، ثم نجاح الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ في تحقيق ذلك الهدف بجهود أبناء مصر ، عندما اضطرت

---

٤٤ (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٨-١٧٩

٤٥ (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٢٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

إنجلترا إلي إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذي منحت مصر بمقتضاه استقلالاً مشروطاً ، ومن ثم تولي دفة الحكم وزارات مصرية منتخبة ، ثم تدعيم ذلك الاستقلال باعتراف انجلترا باستقلال مصر وتوقيع معاهدة صداقة وتحالف معها في عام ١٩٣٦)[٤٦]

وبعد أن حدَّثت الشيخ الجبرتي وسردت له باختصار أهم الأحداث التاريخية التي أدت إلي سقوط دولة محمد علي وكذلك انهيار وهزيمة الدولة العثمانية نفسها سألني قائلًا :

دروس من التاريخ

- بصفتك يا بني قد قرأت العديد من كتب التاريخ ، ما هي أهم الدروس التي تعلمتها من دراسة التاريخ ؟

وقبل أن أجيب الشيخ قررت أن أوضح له التغيرات الكثيرة التي قد حدثت في المجتمع بل وذهبت معه في جولة بالقاهرة وجلسنا معًا في عدة أماكن عامة وبعض المقاهي والحدائق والمطاعم وانبهر بكل ما شاهده ، ولولا أنه كان حاد الذكاء واسع الخيال لما استوعب كل ما شرحته له من أمور فعرف معني المسرح والسينما والتليفزيون وفهم المقصود بالفن والإعلام بل وشاهدنا معًا مباراة لكرة القدم وبعض الرياضات الأخري وأدرك المتغيرات العالمية التي قد حدثت وعرف قناة السويس والتعديلات التي تمت علي الخريطة ، وقد استغرق كل هذا وقت طويل بلا شك ، وبعد أن تأكدت من أنه استوعب الحد الأدني من المعلومات التي استجدت قمت بتوضيح الدروس التي تعلمتها من دراسة التاريخ فقلت :

- الدرس الأول يا سيدي الشيخ الذي تعلمته من التاريخ هو أن أخلاق الدول تختلف عن أخلاق الأفراد
- ماذا تقصد يا بني ؟
- أقصد يا سيدي أن الضوابط والقيم والمبادئ التي يلتزم بها الأفراد في علاقاتهم لا تلتزم بها الدول في علاقاتها كالصدق والأمانة والإيثار والتعاون والشفافية وكل الأخلاق الحميدة ، تستبدلها الدول بمبدأ واحد فقط هو المصلحة ، فالمصالح وحدها هي التي تحكم العلاقات بين الدول ولا مكان للأخلاق ، فالأمن القومي لأي دولة له الأولوية الأولي في التعامل مع باقي الدول فقد تخادع وتمكر وتجند العملاء بل وقد تعلن الحرب أيضاً للحفاظ علي كيانها وأمنها ومصالحها
- هذا الدرس معروف يا بني بالطبع وبدون حتي أن نقرأ التاريخ
- يحضرني هنا يا سيدي بعض ما كتبه الكاتب الكبير يحيي حقي عن هذا الموضوع عندما تحدث عن القائد المصري أحمد عرابي حيث قال : وإذا جئنا لعرابي وجدناه هو أيضاً لسوء الحظ غير ملم بالموقف الدولي الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع علي أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس وكيف تحولت من معارضتها إلي الطمع فيها ثم إلي اتخاذ العدة للاستيلاء

[٤٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٨٦-١٨٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

عليها ، لم يمد بصره إلي أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة ، لم يحاول البحث عن نصير حتي لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له – كان ينبغي ان يكون ملما كل الإلمام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن انجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها ، لم تجد إنجلترا في عرابي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع ، فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر – – ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده ، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات

- بالفعل يا بني الإخلاص وحده لا يكفي بدون حكمة ، فما الدرس الثاني
- الدرس الثاني الذي تعلمته يا سيدي الشيخ من قراءة التاريخ يتلخص في أنه كي تعيش بعض الشعوب في رفاهية ورخاء لابد أن تعيش شعوب أخري في بؤس وفقر ، ولكي تنعم بالحرية لابد أن تعاني شعوب أخري من القمع والعبودية
- هذه النقطة يا بني تحتاج إلي بعض التوضيح إذ ما الذي يمنع أن تعيش بعض الشعوب في رفاهية وحرية دون قهر وإذلال شعوب أخري
- للأسف تقوم الدول الكبري باستنزاف ثروات الدول الضعيفة واستغلال إمكانياتها وقد أخذ هذا الاستغلال أشكال عديدة علي مر التاريخ ، فكانت قديماً تقام إمبراطوريات ضخمة تسيطر علي العديد من الشعوب وتسومها سوء العذاب وتُسخّر طاقاتها لخدمة مصالحها ثم تطور هذا الاستغلال ليصبح ما يسمي بالاستعمار ثم تطور لما يُعرف بالامتيازات الأجنبية أما حالياً فقد أصبحت الدول الضعيفة سوقًا لمنتجات الدول الكبري ومعمل تجارب لأسلحتها وفئران تجارب لأدويتها ومدفن لنفاياتها النووية ومكان لإقامة المصانع الملوِثة للبيئة والتي لا تسمح الدول الكبري بإقامتها علي أراضيها وقد يصل الأمر إلي استغلال الفاسدين للإتجار بالأعضاء البشرية وغير ذلك من أساليب الاستغلال القذرة
- وكيف تسمح هذه الشعوب الفقيرة بكل هذا ؟
- إن هذه الشعوب مغلوبة علي أمرها وتخضع لأنظمة حاكمة تسلبها إرادتها وتشغلها بمشاكل الحياة وأمور أخري وتحرص علي عدم الاهتمام بالتعليم وعلي عدم نشر الوعي بالإضافة إلي الإعلام الموجه الذي يحذر الشعوب دائماً من المؤامرات الخارجية التي تستهدف الوطن
- بالمناسبة ، ما رأيك في موضوع المؤامرات الخارجية ونظرية المؤامرة ؟
- تعيش بعض شعوب العالم الثالث أو معظمها بين المطرقة والسندان ، وهما قوتان تعتمد كل واحدة منهما علي الأخري في وجودها واستمرارها ، وهما قوي المؤامرات الخارجية وقوي الاستبداد الداخلي وهما حقيقتان لا يمكن تجاهلهما أو التهوين من شأن أي منهما فمن المستحيل أن تنجح المؤامرة من الخارج في إثارة أي شعب علي النظام الحاكم إلا إذا كان هذا الشعب يعاني من الاستبداد الداخلي ،

وكذلك من الصعب جداً أن يجد الاستبداد الداخلي مبرراً لوجوده واستمراره دون أن يحذر الشعب من وجود مؤامرة خارجية قد تؤدي إلي ضياع هذا الشعب ، والطريف أن كلاهما صادق بالفعل فكلاهما حقيقة لا مفر منها ، ويكون الشعب بين مطرقة الاستبداد الداخلي وسندان المؤامرة الخارجية فيستسلم لأحدهما وغالباً ما يكون تمسكه بالاستبداد الداخلي كأهون الخيارين الذي أحلاهما مر ، وخاصة عندما يري تأثير ما حدث لمن اختار الاختيار الثاني فيجد دولاً تحولت إلي أطلال وشعوباً تحولوا إلي لاجئين

- هذا يعني صحة نظرية المؤامرة وقد أضفت إليها استعانتها بوجود استبداد داخلي ، ولكن ما الذي يبدأ أولاً المطرقة أم السندان ؟
- أعتقد أن الاستبداد الداخلي يبدأ أولاً فيُضعف من كيان الدولة ويُفقر شعبها لأنه عادةً يرتبط بالفساد فالمستبد لص فاسد يريد تحقيق مصالحه هو وعصابته علي حساب الشعب ، ومن هنا تستغل الدول الأخري هذا الموقف فتساعده علي تدعيم مركزه في مقابل تحقيق مصالحها
- أي أن هذه الدول تمتص دماء الشعوب المقهورة وتتقاسمها مع أنظمة فاسدة مستبدة تحكم هذه الشعوب
- بكل تأكيد فكما قلنا أن الدول بلا أخلاق وأن المصالح فقط هي التي تحركها وأن من مصلحة الشعوب الحرة أن تعيش شعوب أخري مقهورة ، وقد قرأت في كتاب سقط النظام في أربعة أيام للأستاذ محسن محمد ما يؤكد أن وجود فساد في دولة ما قد يكون مصلحة دولة أخري حيث كتب ما ملخصه : ويجتمع رؤساء البعثات الأميريكية في الشرق الأوسط ، ، اعترف الحاضرون بانتشار الفساد في هذه الدول ولكنهم وجدوا أن الاستقرار في مصر ودول الشرق الأوسط أهم من الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، وخافوا من معارضة الفساد وما قد تؤدي إليه ، وعلي هذا الأساس انتهي قرار الدبلوماسيين إلي ضرورة مساعدة نظام حكم الملك فاروق اقتصاديًا مهما كانت درجة فساد هذا النظام ، وقال الدبلوماسيون إن النظام السياسي فاسد ولا يمكن إصلاحه ولكن من مصلحة الولايات المتحدة المحافظة عليه
- من مصلحة الولايات المتحدة المحافظ علي الفساد ؟
- نعم إذا كانت معارضته قد تؤدي إلي نتائج ضد مصالحها
- ولكن ماذا يحدث إذا قام شعب بثورة علي هذه الأنظمة الفاسدة ؟
- إن الظلم وحده لا يولد الثورة فلابد من الإحساس بهذا الظلم أولاً كي تقوم الثورة ، فقد يكون هناك شعب مظلوم ولكنه لا يشعر بحجم المأساه التي يعيشها نتيجة لأمور كثيرة يعمل النظام علي استمرارها
- مثل ماذا ؟
- كما قلت انخفاض مستوي التعليم وغياب الوعي مع الإلهاء بأمور تافهة ونشر ثقافة الاستهلاك فلا يهتم الشعب إلا بما يُفرض عليه فرضاَ ، وخذ مثلاً علي ذلك من أشهر وأوضح الأمثلة وهو مباريات

كرة القدم والمشاكل التي تحدث بين الأندية والإعلام الرياضي المريض كل هذا يأخذ الشعب إلي طريق بعيد جداً عن مشاكله الحقيقية

- ولكن الاهتمام بالرياضة وكرة القدم موجود في دول كثيرة متقدمة بالتأكيد
- بالفعل متقدمة أي حلت مشاكلها ونظمت حياة مواطنيها وضمنت لهم الطعام الصحي والعلاج المناسب والعمل والسكن وجميع احتياجات المجتمع ثم تحولت إلي الرفاهية ، إن الاهتمام بكرة القدم رفاهية لا نملكها ، وبالتالي تتحول إلي خطة إشغال كبري لإلهاء الشعب بانتصارات لا تحل مشاكله الحقيقية ، بل إنني أؤكد لك أن من يقوم بذلك يرتكب جرائم في حق الشعب بحجة أنه يرفع روحه المعنوية
- وماذا أيضاً ؟
- الفن يا سيدي وما أدراك ما الفن إنه من أكبر الكوارث في المجتمعات المتخلفة لأنه يزيدها ضياعاً ويجعلها تنحرف عن الطريق الصحيح بما تقدمه من أعمال هابطة تنشر الفجور والعري والألفاظ النابية بين الشباب ناهيك عن الإيحاءات الجنسية ، كما أنها تعمل علي الإساءة لكل ثوابت المجتمع الأخلاقية فتنتج أجيالاً مشوهة قد فقدت هويتها وتمسكت بقشور الحضارة الغربية ويكفي مثلاً علي ذلك أن مسرحية واحدة أفسدت الطلبة في المدارس ومسرحية أخري أفسدت الأولاد في البيوت وهكذا
- أليس الفن يرصد ما في المجتمع من مشاكل ؟
- إن هذا رفاهية أيضاً لا نحتاجها حالياً فليس هناك مجتمع سوي أصلاً كي ترصد ما فيه من مشاكل ، فعليك أولاً أن تقيم المجتمع الذي نحن في حاجة إليه علي أساس متين ثم ارصد ما شئت بعد ذلك ، إن الفنان الذي ينشر هذا النوع من الأعمال الفنية يرتكب جرائم في حق هذا الشعب تستمر لأجيال عدة وتحتاج إلي مجهود ضخم لإزالة آثارها
- فماذ غير كرة القدم والفن ؟
- هرم الحاجات المختل والغباء الجماعي المقترن بالذكاء الفردي
- وما هو هرم الحاجات وكيف أصبح مختل ؟ وماذا تقصد بالغباء الجماعي ؟
- هرم الحاجات هو هرم مدرج تخيِّلي له قاعدة كبيرة وأعلاها قاعدة أصغر منها ثم أصغر كلما ارتفع لأعلي وهكذا ، وهذه القواعد تعبر عن الأولويات والحاجات الأساسية التي تتدرج في الأهمية كلما زاد ارتفاع الهرم ، بحيث لا يمكن الصعود إلي درجة أعلي إلا بعد المرور علي الدرجات الأقل منها وهكذا
- فما القاعدة الكبري الأساسية في هذا الهرم أو ما هي الحاجة الأساسية الأولي في هذا الهرم ؟
- الأمن والأمان بالطبع هي القاعدة الأولي والحاجة الأساسية ، فأنت إذا كنت تتضور جوعاً مثلاً وتمسك بيدك قطعة من أشهي أنواع الطعام هل يمكنك أن تتناولها وهناك حيوان مفترس يطاردك ؟
- وكيف أستطيع أن آكل طعاماً إذا كنت أنا طعام لغيري ؟

- إذن نحن متفقون جميعاً أن الأمن هو المطلب الأساس والقاعدة الأولي للهرم فلا يمكن أن تفكر في أي حاجة أخري أثناء وجود خطر علي حياتك ، أما بعد أن تبتعد عن الخطر وتتواجد في مكان آمن سوف تحتاج بالتأكيد إلي الطعام والشراب وهي القاعدة الثانية في هذا الهرم ثم تأتي الحاجة إلي المأوي وهكذا تتدرج حاجاتك طبقاً للأولويات فهناك الحاجة إلي العلاج والتعلم والحاجة للعمل والكسب والحاجة إلي الزواج والإنجاب والحاجة إلي العدالة والكرامة وقد يختلف هرم الحاجات بعد ذلك من شخص إلي آخر أو من بيئة إلي أخري ولكن يظل الأمن والطعام والمأوي هم الثلاثة حاجات الأساسية لجميع البشر
- عظيم جداً فما هو الاختلال الذي تقصده ؟
- الاختلال يحدث عندما تعتقد أنك في حاجة لأشياء لست في حاجة إليها بالفعل أو علي الأقل هناك ما هو أنت أكثر احتياجاً إليه
- وهل يحدث هذا لأحد ؟
- بالتأكيد هناك من يعتقد أنه في أمس الحاجة لأشياء معينة ويبذل مجهود غير عادي بل وقد ينفق كل ما يملك من الأموال ليحصل عليها برغم أنه في الواقع يعاني من نقص حاد في حاجات أخري قد يؤذيه غيابها ويفقد ما يملكه من مال من أجل لا شئ
- وهل هناك من يعبث بهذا الهرم متعمداً ؟
- بكل تأكيد ، لأن العبث بهرم الحاجات يجعلك تسيطر علي المجتمع وتقوده في أي اتجاه تريد لتحقق مصالح معينة قد تكون داخلية أو خارجية أو كليهما
- وهل يختلف هرم الحاجات للشعوب عن هرم الحاجات للأفراد ؟
- إن كل دولة لها حاجات استراتيجية كأمنها القومي والاكتفاء الذاتي من الطعام والدواء والسلاح وكل شعب يحتاج لتنفيذ القانون علي الجميع والقضاء علي الفاسدين والمستغلين وتوفير الكرامة الإنسانية والحرية وحقوق الإنسان ولكن في النهاية حاجات الشعوب تعتبر امتداد لحاجات الفرد ولكن بمقياس رسم أكبر وفي النهاية فإن تحقيق حاجات الدولة الحقيقية يؤدي إلي تحقيق حاجات أفرادها بلا شك
- وهل هناك من يعبث بهرم الحاجات للدولة كلها ؟
- بالتأكيد هناك دول تعبث بهرم الحاجات لدول أخري لتجعلها في حاجة دائمة لها بل إنها تضيف إلي هذا الهرم حاجات غير مهمة لتسيطر بها علي دول وشعوب أخري فتثير الفتن والمشاكل والحروب بين الدول وتبيع لها السلاح مثلاً وهي ليست في حاجة إليه في الأساس ، وبالعبث بهرم الحاجات يتم ترويج العديد من المنتجات الاستهلاكية التافهة كالموضة مثلاً
- ولكن بالنسبة للسلاح ألا تحتاجه الدول علي أي حال ؟
- تحتاجه بالطبع ولكن من المؤكد أن إنتاجه أفضل من امتلاكه بالشراء ، لأن في ظل التطور التقني (التكنولوجي) والعلمي الرهيب والغير مسبوق لا يمكنك أن تثق في أي سلاح تستورده من الخارج سواء

طائرات أو مدمرات أو غواصات أو رادارات أو أي معدات لأنك لا تعرف كيف تمت برمجتها وهل يمكن لمُنتجها التحكم فيها بعد بيعها أم لا وهل سيكون السلاح فعال إذا قمت باستخدامه ضد مصالح الدولة المنتجة له ، فضلاً عن احتياجك الدائم لصيانته وتوفير قطع غيار له وما إلي ذلك

- هذا يعني أن عدم إنتاج السلاح يعبر عن عدم وجود سلاح من الأساس
- الأهم من السلاح هو الغذاء فما جدوي انتاج أو امتلاك سلاح وأنت تعتمد علي دول أخري في غذاءك وملابسك وسياراتك وأجهزة اتصالاتك ودواءك وكل ما تستخدمه من تكنولوجيا في بيتك وعملك ومصنعك ومستشفياتك إلخ
- معني هذا أن الدول المنتجة لكل هذا تتحكم في الدول المستهلكة
- فهل له معني آخر في رأيك ؟
- أفهم من هذا أن كل شعب لابد أن يعرف جيداً احتياجاته الحقيقية ويعتمد علي نفسه في توفيرها بالتدريج ولكن هل سيسمح له أعداءه بهذا ؟
- السبيل الوحيد لتحقيق كل هذا هو بناء الإنسان وتعليمه فهو الذي سيقوم بكل هذا ، أما تدمير الشباب وتحويلهم إلي مسخ مشوه تافه لا يعرف أي ثوابت أو مبادئ ولا يهتم إلا بأتفه الأمور ويجهل تماماً هويته وتراثه وتاريخه وتراه غزير المعلومات عميقها في كل ما يختص بكرة القدم العالمية أو المحلية والأعمال الفنية المختلفة وتراه مع كل هذا عبداً لشهواته منجذباً إلي الغرب الذي يذله ويدمر أوطانه ويشعر بدونية وهزيمة نفسية بشعة علي الدوام أمام الغرب معتقداً أن التغريب هو التحديث
- وما الفرق بين التغريب والتحديث ؟
- هناك فرق كبير ولتوضيح ذلك سأقرأ لك مقتطفات من كتاب (ودخلت الخيل الأزهر) لمحمد جلال كشك لأنه شرح هذا الفرق بأسلوب رائع حيث قال : اليابان وحدها عرفت الجواب الصحيح : التحديث لا التغريب ، ولكي يتحقق التحديث لابد من رفض التغريب ، بل نزعم أنه بقدر الإصرار والنجاح في رفض التغريب يكون النجاح في تحقيق التحديث ، تمسكت اليابان بدينها – – وتمسكت بنظامها الملكي – – وبينما كان يجري التحديث بأعلي معدل عرفته دولة إلي النصف الثاني للقرن العشرين ، كان الياباني محتفظاً بحياته العائلية والاجتماعية وتقاليده وتراثه ، يرتدي القفطان (الكيمونو) والقبقاب ، ويأكل علي الطبلية بالعصي ، محتقراً الجنس الأبيض ، مقتنعاً بإصرار متزايد أنه خير أمة علي ظهر الأرض ، محتفلاً بأعياده القومية ، – – ظل المسرح الياباني يقدم روايات التراث وبنفس الأسلوب منذ قرون ، وظلت المرأة في مكانها التقليدي ودورها الأساسي وظلت علي احترامها للزوج وخلع حذائه بيديها ، واليابان هي البلد الشرقي الوحيد الذي لم تظهر فيه حركة تحرير المرأة لذلك أصبحت مجتمعاً حراً وحافظت علي استقلالها ، لأنها عرفت أن المرأة لا تتحرر وحدها ، وأنه لا حرية لامرأة ولا لرجل في مجتمع ضعيف متخلف فاقد الاستقلال ، أو مهدد بفقده في أية لحظة ، وبعكس ما بُذل من جهد في

بلادنا لتعليمنا استخدام الشوكة والسكين أو آداب المائدة ، لم يحدث قط أن حاول اليابانيون الأكل علي الطريقة الغربية ، فالأمة التي تُلقَّن أنها بحاجة إلي أن تتعلم آداب المائدة من عدوها هي أمة فقدت احترامها لنفسها ، ويستحيل أن تنجز أي تفوق ، التحديث : هو امتلاك كل المعرفة التي يتفوق بها الغرب ، إنتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب ، وكل ما تحتاجه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث هو إرادة قومية ، وتعبئة هذه الإرادة وتوجيهها في طريق التصنيع أو التحديث إذا كان البلد مستقلاً ، أو في طريق تحرير الإرادة القومية عبر حرب التحرير الوطنية ، التي يتم التحديث خلالها ، لكن يُشترط قبل ذلك أن تؤمن الأمة بأن تخلفها هو ظاهرة عارضة ، وأن أصالتها تمكنها من تجاوز هذه المرحلة العارضة ، أما التغريب ، فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية أنها متخلفة في جوهرها ، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها ، ومن ثَم فلابد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها ، وإعادة تشكيل المجتمع علي الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية ، مع إبقائه متخلفاً عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب ، عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة ، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون إلي النزوح إلي عالم المتفوقين ، المجتمع المُغرَّب هو ذلك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر وأحدث السيارات المستوردة ، وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة ، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة ، وعلي أحدث الموضات الغربية ، ويثرثر مثقفوه في قاعات مكيفة بأجهزة – مستوردة – في مشاكل المجتمع الغربي وآلامه ، ويملأون صفحات من ورق مستورد تطبع بحبر مستورد وبآلات مستوردة حول قضايا –الغرب – علي بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهاريسيا والكوليرا وكل تراكمات التخلف ، كأن التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث ، وكل الدول التي تم تغريبها أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياه ، ظلت علي تخلفها ، بل وأخطر من ذلك أن التغريب يقضي علي روح المقاومة في الأمة الشرقية ، فيجعل استعمارها من قِبل الدول الغربية المتفوقة أسهل ، وحكمها أيسر ، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً وأقل كلفة ومخاطر ، من هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة التغريب بين صفوفنا ، فمنذ الحملة الفرنسية وهناك استثمارات فكرية تهدف إلي إقناعنا بأنه لا تحديث إلا بالتغريب

وبمناسبة هذا الكلام ،تذكرت كيف قامت بريطانيا بشن الحروب قديماً لاستعمار العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية حتي أنها كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، فإذا غربت الشمس عن مكان يرفرف فيه العلم البريطاني أشرقت الشمس في مكان آخري يرفرف فيه العلم البريطاني وعليه الصليب البريطاني الشهير ، أما الآن فهذا العلم موجود بدون قتال أو سيطرة فتراه موجود علي ملابس شبابنا وسياراتنا وملصقاتنا فكيف تم لهم ذلك إلا بنشر ثقافة التغريب

- بالفعل إن أعلام الدول الكبري منتشرة في كل مكان بل وقوانينهم أيضاً وتقاليدهم وأعرافهم التي لا تناسبنا ، كل هذا منتشر بدون قتال أو تكوين إمبراطوريات ، إنه الغزو الفكري للأمة بكل ما تحمله الكلمة من معاني فهو يدفعك لتعيش حياة الغرب دون أن تمتلك أدوات التقدم والتحديث
- حسناً . هذا عن هرم الحاجات المختل ، فماذا عن الغباء الجماعي ؟
- إن الغباء الجماعي هو السبب الأساس في كل ما يعانيه المجتمع ، ففي مجتمعات الغباء الجماعي الكل يحاول أن يدفع العربة في الاتجاه الذي يوافق مصالحه فقط فمنهم من يدفعها من الخلف ومنهم من يدفعها من الأمام بل إن هناك من يدفع العربة من الأجناب متصوراً أنها ستتحرك في الاتجاه الذي يرغب فيه ، والنتيجة الحتمية أن العربة لن تتحرك أبداً في أي اتجاه ، الكل يدفع دون أن يكلف نفسه حتي مشقة النظر إلي وضع العربة وأين توجد مقدمتها فهو لا يري سوي هدفه هو فقط والعربة بشكل عام ، أما مكانه بالنسبة للآخرين ومكانهم بالنسبة له وبالنسبة للعربة كل هذا لا يكون واضحاً في مجتمع الغباء الجماعي ، في حين أن الجميع يدفع العربة في مجتمع الذكاء الجماعي في اتجاه واحد فقط فهي دائمة الحركة وتمر علي جميع الأهداف والأماكن حسب أولوياتها وترتيبها والكل ينتظر في اطمئنان لتأكده من أن العربة حتماً ستمر بالمكان الذي يرغب فيه ، هذا هو الفرق ، الإحساس بالأمان والاستقرار نتيجة للذكاء الجماعي ، والإحساس الدائم بعدم الثقة في الغد في مجتمع الغباء الجماعي فالجميع يتصور أنه علي حق وأنه الوحيد الذي يعمل عملاً محترماً مفيداً أما الآخرين فلا يهتم بما يفعلون بل إنه يحتقر أحياناً ما يفعله الآخرون ، في مجتمع الذكاء الجماعي كل عمل محترم مهما صغر فالكل يشعر بعمل الكل والكل يستفيد من أعمال الآخرين لأن الجميع يدفعون العربة في الاتجاه الصحيح ، ولا يهم نوع العمل طالماً أنه يخدم الجميع دون تفرقة أو محسوبية أو وساطة
- أفهم من كلامك أن في هذا النوع من المجتمعات لا تحتاج لمعرفة أي شخص في أي مكان لتنهي مصالحك
- بالضبط ، لأن ما تقوله يُسمي الذكاء الفردي ، فعلاقاتك ومعارفك وأموالك ونفوذك وخبراتك الشخصية كلها تحتاجها لتنفيذ ما تحتاجه لأن المجتمع لن يقف بجانبك ، فأنت مثلاً لابد أن تفهم في أمور كثيرة كالكهرباء والسباكة والميكانيكا وبعض الأمراض والأدوية بل وتساعد أولادك في مذاكرة دروسهم ، فأنت تفعل كل شئ بنفسك لنفسك ولأسرتك مما يجعلك تفهم في أمور كثيرة فيزداد ذكاءك الفردي وكل هذا لا يحتاج إليه أي شخص يعيش في مجتمعات الذكاء الجماعي فهو يتسم بالغباء الفردي وهو سعيد به لأن المجتمع يحل له كل مشاكله وليس عليه غير أن يقوم بعمله ليخدم المجتمع علي أكمل وجه ، أما من يعيش في مجتمع الغباء الجماعي فقد لا يجد الوقت والجهد ليقوم بعمله لأنه مشغول دائما بإتمام أعمال الآخرين التي لم تتم بشكل كامل

- ولا يجب أن نلوم أحد علي الإطلاق في مجتمع الغباء الجماعي لاستخدامه ذكاءه الفردي فهي ثقافة عامة سائدة في المجتمع بل يفخر بها الكثير من الناس فهي في نظرهم جدعنة أو شهامة فكيف أكون أعمل في مكان ما وأعز أحبابي وأصدقائي يتعثرون فيه ؟ هذا لا يمكن حدوثه ، فالذكاء الفردي قد يوقف قطار مثلاً في محطة لا يجب أن يقف فيها بل من الممكن أن يقف في مكان ليس فيه محطة أساساً ، والذكاء الفردي قد يُدخل بضائع إلي البلد لا تحتاجها أو لا تصلح للاستخدام أو أدوية أو قطع غيار أو أغذية أو أي شئ ليس في صالح المجتمع ، والذكاء الفردي قد يعطي شهادات دراسية بل قد تصل إلي شهادات عليا لمن لا يستحقها ، وكل واحد في مكانه باشا كبير والجميع في حاجة إليه ، وعندما يذهب إلي مكان آخر أصبح في حاجة إلي من في المكان الآخر ، وعليه أن يقوم بما يرضي الباشا الآخر ، وهنا نجد روح الانتقام إلي حد ما تسود مجتمع الغباء الجماعي ، فكل منهم ينتظر الآخرين عند حضورهم إلي ملعبه ليشبع غروره ويريهم سلطاته وإمكانياته فيعذب المجتمع نفسه بنفسه
- ولكن من المسئول عن نشر هذه الثقافة في المجتمع ؟
- إن هذه الثقافة بالطبع تخدم أصحاب المصالح ولا تحتاج إلي مجهود كبير لنشرها ، فكل ما عليك فقط هو تنفيذ القانون علي البعض وعدم تنفيذه علي البعض الآخر فيصبح القانون الوحيد الذي يطبق علي الجميع هو قانون الجاذبية الأرضية فقط
- ولكن أليس تطبيق الذكاء الجماعي في المجتمع ممكن دون مبادرة من أعلي أو إشراف حكومي مثلا فيقوم الجميع بأعمالهم دون رقابة من أعلي ؟
- هذا يتطلب من الجميع الاستعداد للقاء الله سبحانه وتعالي والعودة إلي منهجه فهذا وحده يكفي ليتقن كل شخص عمله دون انتظار مصلحة في المقابل فيخدم الجميع بنفس الجودة والسرعة ابتغاء مرضاة الخالق عز وجل ، وأعتقد أيضاً أن الاستعداد للموت والحساب سيجعل الكثيرين يزهدون في كثير من أمور الدنيا وبالتالي سيكون هرم الحاجات الخاص بهم متوازن ولن يسيطر عليهم أحد أو يذلهم ويتحكم فيهم
- ولكن هل سيسمح لهم حكامهم بهذا ؟
- أعتقد أنك لن تقع تحت طائلة القانون إذا لم تشاهد مبارة كرة قدم أو لم تدخل السينما أو المسرح أو إذا لم تقم بشراء السلع الاستهلاكية التافهة أو إذا توقفت عن مشاهدة البرامج التافهة أو شراء الصحف والمجلات الصفراء أو عدم متابعة الأعمال الفنية في شهر رمضان مثلاً وغير ذلك من العادات السيئة التي قد تُساق إليها ، فكل هذا لا يجرمه القانون

وهنا استيقظت من النوم وتأكدت أني كنت أحلم بلقاء الجبرتي رحمه الله وتذكرت كتاب حديث عيسي بن هشام الذي حدث فيه موقف مشابه حيث كتب ما يلي :

من كتاب حديث عيسي بن هشام

- من كتاب حديث عيسي بن هشام – تأليف محمد المويلحي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٦– الأعمال الإبداعية
-
- حدثنا عيسي بن هشام قال : رأيت في المنام ، كأني في صحراء الإمام ، أمشي بين القبور والرجام ، في ليلة زهراء قمراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور ، وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكبره ، وشموخه بمجده وفخره ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لرمسه ، – – – وبينا أنا في هذه المواعظ والعبر ، وتلك الخواطر والفكر ، إذا برجة عنيفة من خلفي ، كادت تقضي بحتفي ، فالتفت التفاتة الخائف المذعور ، فرأيت قبراً انشق من تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ، عليه بهاء المهابة والجلالة ، ورواء الشرف والنبالة ،
- فصعقت من الوهل والرجل ، صعقة موسي يوم دك الجبل ، ولما أفقت من غشيتي ، وانتبهت من دهشتي ، أخذت أسرع في مشيتي ، فسمعته يناديني ، وأبصرته يدانيني ، فوقفت امتثالاً لأمره ، واتقاء لشره
- ثم دار الحديث بيننا وجري ، علي نحو ما تسمع وتري :
- الدفين :
- ما اسمك أيها الرجل ؟ وما عملك ؟ وما الذي جاء بك ؟
- فقلت في نفسي : حقاً إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين ، فهو يسأل علي أسلوبهما ، فاللهم أنقذني من الضيق ، وأوسع لي في الطريق ، لأخلص من مناقشة الحساب ، واكتفي شر هذا العذاب ، ثم التفت إليه فأجبته :
- عيسي بن هشام :
- اسمي عيسي بن هشام ، وعملي صناعة الأقلام ، وجئت لأعتبر بزيارة المقابر ، فهي عندي أوعظ من خطب المنابر
- الدفين :
- وأين دواتك يا معلم عيسي ودفترك ؟
- عيسي بن هشام :
- أنا لست من كتاب الحساب والديوان ، ولكني من كتاب الإنشاء والبيان
- الدفين :
- لا بأس بك ، فأذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لي ثيابي ، وليأتوني بفرسي دحمان
- عيسي بن هشام :

- **وأين يا سيدي بيتكم فإني لا أعرفه ؟**
- **الدفين (مشمئزاً) :**
- **قل لي بالله من أي الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر ، إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية**
- **عيسي بن هشام :**
- **أعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر ، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها ، إذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم ورقمه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه**
- **الباشا (مغضباً) :**
- **ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً ، فمتي كان للبيوت أرقام تعرف بها ، والأولي أن تناولني رداءك استتر به وتصاحبني حتي أصل إلي بيتي**
- **قال عيسي بن هشام : فنزلت له عن ردائي وقد كان المعهود سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطريق ، فإذا هو أيضاً من سكان القبور ، ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول :**
- **الباشا :**
- **للضرورة أحكام ، وقد لبسنا أدني من هذا الرداء في مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا علي طريقة التنكر ، والتبديل في الليالي التي كان يقضيها في البلد ، ليستطلع بنفسه أحوال الرعية ، – – – – –**
- **قال عيسي بن هشام : فسرنا في طريقنا ، وأخذ الباشا يزيدني تعريفاً بنفسه ، ويقص علي من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التي شاهدها بعينه وسمعها بأذنه**
- **وما زلنا علي تلك الحال حتي وصلنا في ضوء النهار إلي ساحة القلعة ، فوقف وقفة المستكن الخاشع ، يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد علي ، ويخاطب القلعة بقوله :**
- **إيه لك يا مصدر النعم ، ومصرع الجبابرة من عتاة المماليك ، ويابيت الملك وحصن المملكة ، ومنبع العز ، ومهبط القوة ، ومرتفع المجد وموئل المستغيث وحمي المحتمي ، وكنز الرغائب ومنتهي المطالب ، ومثوي البطل الشهم ومقبر الملك الهمام ، أيها الحصن كم فككت بالكرم عانيا ، وقيدت بالإحسان عافيا ، وكم أرغمت أنوفاً ، وسللت سيوفاً ، وجمعت بين الناس والندي ، وداورت بين الحياة الردي**

وبعد أن تذكرت ما ورد في كتاب حديث عيسي بن هشام حمدت الله علي مقابلتي للجبرتي في المنام فهو من أرباب القلم وليس من أرباب السيف كما أنني التقيت به في مسجد وليس في المقابر

تمت

الكتب والمراجع

كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (عبد الرحمن الجبرتي)

كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان - الفصل الثاني – شخصية مصر السياسية – مكتبة مدبولي

كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٨ مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٥ كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٥

كتاب تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي راجعه وعلق عليه جمال محمود مصطفي دار الفجر للتراث(الطبعة الأولي)١٩٩٩

كتاب تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢

كتاب الدولة العثمانية (د علي الصلابي)

كتاب " مرآة الإسلام " طه حسين صفحة ٣٠٤ – دار المعارف – طبعة ١٩٥٩

كتاب (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال الطبعة الثانية ٢٠٠٦

كتاب حديث عيسي بن هشام – تأليف محمد المويلحي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٦– الأعمال الإبداعية

المحتويات

Contents

رأيت في المنام ٣

من أي البلاد أنت يا بني ؟..... ٣

ماذا تريد أن تعرف عن الماضي يا بني ؟ ٤

انقسام المجتمع ٩

الدنيا بلا خليفة ١٢

الحاجة إلي الحاكم ١٤

أصناف العدل ١٥

الملوك وولاة الأمر ١٦

أوساط الناس..... ١٨

منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع ٢١

أسباب تراجع دور العرب في العالم الإسلامي : ٢٤

القومية العربية ضد القومية التركية ؟ : ٢٥

عبد الحميد الثاني الخليفة الأخير : ٢٦

السلطان عبد الحميد واليهود ٢٧

الثورة العربية ضد الدولة العثمانية : ٣٠

دروس من التاريخ ٣٦

من كتاب حديث عيسي بن هشام ٤٥

الكتب والمراجع..... ٤٧

المحتويات..... ٤٨